الفصل السادس

جيمس السادس والأول

١٥٦٧ — ١٦٢٥

جيمس السادس ملك اسكتلنده ١٥٦٧ — ١٦٠٣

توج جيمس السادس ملكا على اسكتلنده (٢٩ يولية ١٥٦٧) حين كان عمره ثلاثة عشر شهرا، حين كانت أمه سجينة فى لوكليفن . وكان عمره ثمانية أشهر حين قتل دارنلى الذى يفترض أنه والده ، كما كان يبلغ من العمر عشرة أشهر حين رأى أمه للمرة الأخيرة، ولم تعد له إلا اسماوخيالاتغشيه وتلطخه مأساةبعيدةمزرية . وترى على أيدى لوردات نهازين باحثين عن مصلحتهم ومعلمين معادين لأمه : وتلقى قدرا كبيرا من العلوم الانسانية ، وقدرا أكبر مما ينبغى فى اللاهوت ، وقدرا ضئيلا جدا فى الأخلاقيات ، حتى أصبح أعظم العلماء المسرفين فى الشراب فى أوربا .

وتولى الحكم باسمه أربعة أوصياء على العرش على التوالى — مورى ، لنوكس، مار ، ثم مورتون ، وكلهم عدا واحدا ، ماتوا ميتة غير طبيعية : ودافعت جماعات النبلاء المتنافسة عن شخص الملك حصن سلطانهم وقوتهم : وفى ١٥٨٢ احتجزه بعض اللوردات البروتستانت تساندهم الكنيسة الاسكتلندية الوطنية ، فى قلعة رثفن Ruthven خشية أن يخضع لنفوذ قريبه الكاثوليكى ازمى ستيوارت ، فلما أطلق سراحه وعد بالدفاع عن العقيدة البروتستانتية ، ووقع تحالفا مع انجلترا البروتستانتية ، ولما بلغ السابعة عشرة من العمر ، نهض بالمهام الفعلية للملك :

وكان شاذا بين الملوك : وكان سلوكه خشنا غير مهذب ، وكانت مشيته بشعة، وصوته عاليا ، وكان حديثه محنة يبتلى بها سامعه لما فيه من الغلظة والحذلقةالمفتقرة

إلى الحكمة . وقال أحد المراقبين الذين لا يكنون له كثيرا من الحب : « كانت معرفته باللغات والعلوم وشئون الحكم أكثر من أى فرد فى اسكتلنده[١] » ولكن نفس المراقب أضاف : « أنه كان مغرورا بشكل غير عادى » . وربما كانت هذه السمة أو الميزة ضرورية للمحافظة على الحياة فى خضم من المتاعب ، بقدر ما هى المظهر المضلل لرجل لايستطيع أن يسترجع فى ذاكرته يوما لم يكن فيه ملكا . ولابد أن يتحلى بشىء من الذكاء المتقد ليحتفظ بتاجه على رأسه فى اسكتلنده ، ويلبس تاجا أعظم فى انجلترا حتى يموت ميتة طبيعية . وكان متقلبا إلى حد ما بالنسبة للجنس ، فتزوج من الأميرة الدنمركية الكاثوليكية ، آن ، ولكن لم يكن به ميل شديد إلى النساء ، وانغمس فى التودد إلى المحظيات إلى حد ساعد على القيل والقال .

وكان عليه أن يشق طريقه بالحيلة والدهاء وسط الأفكار العنيفة المتصارعة فى أيامه . فان أسرة جنز فى فرنسا ، والملك فيليب فى أسبانيا ، والبابا فى رومه ، تعاهدوا معه على استعادة اسكتلندة إلى حظيرة الكنيسة الكاثوليكية . ولكن الكنيسة الاسكتلندية الوطنية كانت تحسب عليه أنفاسه خشية أن ينحرف عن مذهب كلفن . ولكنه لم يحرق الجسور من خلفه ، فتبادل الرسائل المهذبة مع الدول الكاثوليكية ، وكان به ميل إلى تخفيف القوانين المفروضة على العبادة الكاثوليكية فأطلق خفية سراح أحد الجزويت ، وتواطأ فى تهريب آخر[٢] . ولكن المؤامرات الكاثوليكية أغضبته ، وأثرت فيه البروتستانتية الظافرة فى انجلترا . وتنبأ بما قدر له مع الكنيسة الوطنية الاسكتلندية .

ولم تكن هذه الكنيسة رفيقا مشجعا مريحا ، وما حلت سنة ١٥٨٣ حتى كان قساوستها يشكلون الأغلبية العظمى من رجال الدين الاسكتلنديين ، وكانت مواردهم ضعيفة وحظهم من علوم الدنيا ضئيلا ، ومن ثم انصرفوا إلى العبادة والورع والتقوى ، وتحلوا بالشجاعة والاقدام ، وكدوا وجدوا فى إعادة الكنائس المهملة ، ونظموا المدارس ، وتولوا أمر الصدقات ، وحموا الفلاحين من ظلم اللوردات ، وألقوا المواعظ المسهبة التى استوعبها ووعاها مستمعوهم ، بدلا من الكتب والمادة

المطبوعة . وفى جلسات الكنيسة وفى المجامع الإقليمية وفى الجمعية العامة ، حظى الاكليروس الجديد بقوة تنافس تلك القوة التى كانت هيئة الكنيسة الكاثوليكية قد استخدمتها ضدهم ببراعة . ولما كانوا يزعمون أنهم يتلقون الوحى من عند الله ، ومن ثم فانهم معصومون من الخطأ فى ناحية العقيدة أو فى الناحية الأخلاقية ، فانهم فرضوا على السلوك العام والخاص رقابة أقسى بكثير منها على عهد حراس أو حماة المذهب القـــديم المتراخين . وفى كثير من المـــدن فرضوا غرامات على الاسكتلنديين الذين لم يحضروا الصلوات البروتستانتية ، وفرضوا توبة علنية ، وفى بعض الأحيان عقوبات بدنيـــة ، على مايضبط من خطايا(٣) . وروعوا بانتشار الفجور والزنى ففوضوا رؤساء الكنائس ، نى أن يتنبهوا بتشديد خاص إلى أية انحرافات جنسية ، وأن يبعثوا بتقارير عنها إلى المجامع الكنسية البروتستانتية عند انعقادها ، وصعقوا بالفحش والفجور فى المسرح الإنجليزى فسعوا إلى تحريم التمثيل المسرحى فى سكتلنده ، فلما عجزوا عن ذلك ، حظروا على أتباعهم أن يشهدوه ، وفعلوا مافعله أسلافهم من اعتبار الهرطقة جريمة عقوبتها الاعدام . وتعقبوا السحرة فى حماسة بالغة وأقروا إعدامهم حرقا(٤) . وأقنعوا البرلمان بأن يصدر قانونا يفرض عقوبة الإعدام على أى قسيس يقرأ القداس ثلاث مرات ، ولكن هذا المرسوم لم يطبق على أية حال ، وعندما ترامت إليهم أنباء مذبحة سانت برثلميو ، دعت الكنسية الاسكتلندية البروتستانتية إلى تدبير مذبحة مماثلة للكاثوليك فى اسكتلندة ، ولكن الحكومة أغفلت هذا النداء(٥) .

وباستثناء ادعاء نزول الوحى على القســاوسة وعصمتهم من الخطأ ، كانت الكنيسة الوطنية الاسكتلندية (البروتستانتية) أكثر النظم ديمقراطية فى عصرها . وكان قسيسو الدوائر أو الأقسام يختارون رؤساء الكنائس شريطة موافقة شعب الكنيسة ، وكان جمهور المؤمنين يشهدون الجلسات والمجامع والجمعية العـــامة . وأهاجت وأغضبت هذه الإجراءات الديمقراطية البرلمان الارستقراطى والملك الممسوح بالزيت . ولما كان جيمس يفكر ويجادل — وربما يعتقد ويؤمن — فى أنه يحكم بمقتضى الحق الإلهى ، فانه شكا من أن « جماعة من القساوسة الملتهبين حماسة وغيرة

فى الكنيسة البروتستانتية ، ملكوا قيادة الشعب على هذا النحو ، وأنهم عندما استساغوا طعم الحكم وتلذذوا بحلاوته ، بدأوا يفكرون فى شكل ديموقراطى ... لقد شوهوا سمعتى وافتروا على فى مواعظهم ، لا لأية رذيلة فى شخصى ، بل لأنى ملك اعتبروه أكبر رذيلة(٦) » . وبذلك استؤنف نزاع العصور بين الكنيسة والدولة .

واتخذ النزاع آنذاك شكل هجوم أو حملة من القساوسة على الأساقفة . وكان هؤلاء — وهذا تراث كاثوليكى للكنيسة الاسكتلندية البروتستانتية — يختارون شكلا بواسطة القساوسة ولكن كانوا فعلا يعينون ، وغالبا ما يفرضون على الاكليروس بواسطة الوصى أو الملك . وكانوا يسلمون قدرا كبيرا من إيرادات الكنيسة إلى الحكومة . ولم يجد القساوسة فى الكتب المقدسة سندا أو أساسا للنظام الأسقفى ، ومن ثم عقدوا العزم على التخلص منه فى اسكتلنده ، على أنه لا يلتئم مع التنظيم الشعبى السائد فى الكنيسة الاسكتلندية الوطنية الجديدة .

وكان زعيمهم أندرو ملفيل ، اسكتلنديا عنيفا متحمسا هيأته الطبيعة ليرث عباءة جون نوكس . وبعد أن أنهى تعليمه الجامعى فى سانت أندروز ، تابع دراسته فى باريس ، ورضع لبان مذهب كلفن على يد بيز Béze فى جنيف . ولدى عودته إلى اسكتلنده (١٥٧٤) عين ، وهو فى التاسعة والعشرين من العمر ، رئيسا لجامعة جلاسجو ، فأظهر مقدرة وكفاية فى إعادة تنظيم المناهج . وقواعد الضبط والسلوك فيها . وفى ١٥٧٨ أسهم فى جمع « الكتاب الثانى لقواعد الانضباط والسلوك » الذى ندد بالنظام الأسقفى باسم المساواة الكهنوتية ، ودافع عن الفصل النهائى بين مجالات كل من الكنيسة والدولة . وكان لهذا أثره فى الفصل بينهما فى الولايات المتحدة ، ولكنه طالب بحق القساوسة فى تدريب الحكام المدنيين على ممارسة سلطاتهم « على أساس كلمة الله(٧) » . على أن جيمس ، على أية حال ، أراد أن يكون حاكما مطلقا مثل هنرى الثامن واليزابث ، وآمن بأن نظام الأساقفة ضرورى للادارة الكنسية ، كما أنهم وسطاء مريحون بين الكنيسة والدولة .

وفى ١٥٨٠ « لعنت » الجمعية العامة للكنيسة الوطنية الإسكتلندية (البروتستانتية) وظيفة الأسقف ودمغتها بأنها «حماقة من ابتداع الإنسان » . وصدر الأمر إلى جميع الأساقفة — تحت التهديد بعقوبة الحرمان من الكنيسة ، بأن يكفوا عن مباشرة أعمالهم ، والتقدم إلى الجمعية العامة بطلب الترخيص لهم بأن يكونوا مجرد كهنة عاديين. ونبذت الحكومة « الكتاب الثانى لقواعد السلوك والانضباط » ، وتمسكت بأن الحرمان من الكنيسة لايصبح نافذ المفعول إلا إذا صدقت عليه الدولة . وفى ١٥٨١ رشح لنوكس ، وكان آنذاك وصياً على العرش ، روبرت مونتجمرى رئيساً لأساقفة جلاسجو . ولكن قساوسة جلاسجو البروتستانت أبوا أن ينتخبوه ، ولكنه على الرغم من هذا أصر على أن يتولى مهام منصبه ، فقررت الجمعية العامة بزعامة ملفيل حرمانه من الكنيسة (١٥٨٢) ، ورضخ مونتجمرى وانسحب . واتهم ملفيل بالتحريض على (الفتنة) ، فرفض المحاكمة المدنية ، وطالب بأن يحاكم أمام محكمة كنسية . ولما أدين بتهمة احتقار المحكمة ، هرب إلى انجلترا (١٥٨٤) . وأقنع جيمس البرلمان بأن يعلن أنه يعتبر خيانة : رفض الخضوع للقضاء المدنى ، وتدخل القساوسة فى شئون الدولة ، ومقاومة حكومة الأساقفة ، وأية اجتماعات كنسية لايرخص الملك بعقدها : فآثر كثير من القساوسة أن يلحقوا بملفيل فى منفاه ، على الامتثال لهذه الأوامر . فما كان من جيمس ، تمسكاً بسيادته العليا واستمتاعاً بها ، إلا أن أمعن فى حكم الإرهاب : فعوقب الكهنة لأنهم صلوا من أجل إخوتهم المنفيين ، وأعدم اثنان آخران بتهمة التآمر .

وقاوم رجال الدين والمترددون على كنائسهم ، بما عهد فى الاسكتلنديين من عناد وصلابة ، وشوهت النشرات التى لم يعرف مصدرها سمعة الملك . ونددت الأغانى بطغيانه والعار الذى لحق به من أجله ، وحتى النساء كن له نقداً ساخراً لاذعاً ينذرنه فيه بالجحيم وسوء المصير . وتناقص شيئاً فشيئاً ما كان يحصل عليه أساقفته من الأموال ، وسلموا الدولة منها الأقل فالأقل ، ووجد جيمس أنه بات صفر اليدين ، بلا مال — وهو مصدر قوة إرادته ، واشتد ضعفه سنة بعد أخرى ، وأقر برلمان ١٥٢٩ ، بموافقته التامة ، مرسوماً يحتفظ للكنيسة الإسكتلندية الوطنية (البروتستانتية)

بحريتها ، ويعيد إليها سلطاتها فى الشئون القضائية والضبط ، ويلغى نظام الأساقفة : وعاد المنفيون .

وإذ اشتدت جرأة ملفيل عن ذى قبل ، واجه جيمس بقوله : « خادم الرب الأبله » ، وألقى عليه الحقيقة اللاهوتية التى لا ريب فيها ، فى ١٥٩٦ ، بمثل الثبات ورباطة الجأش اللتين واجه بهما جريجورى السابع الامبراطور هنرى الرابع قبل ذلك بخمسمائة عام (١٠٧٧) فقال : « إن فى إسكتلندة ملكين ومملكتين . فهناك يسوع المسيح ومملكته ، وهى فى الكنيسة ، وأحد رعاياها الملك جيمس . . . وما هو بملك ولا رئيس ولا لورد ، ولكن مجرد عضو[٨] » . وقال — دافيد بلاك — وهو قسيس كنيسة سانت أندروز ، لجماعة المصلين (١٥٩٦) إن جميع الملوك أبناء للشيطان ، وأن اليزابث كافرة ملحدة . وأن جيمس هو الشيطان بعينه[٩] . واحتج السفير الإنجليزى ، واستدعى مجلس الشورى القس بلاك للتحقيق ، فأبى أن يذهب قائلا إن الجرم الذى يرتكب من فوق المنبر لا يخضع إلا لمحكمة الكنيسة ، هذا فضلا عن أنه تلقى رسالته من عند الله . وأمر جيمس بمحاكمته غيابياً . فذهبت إليه لجنة من القساوسة ، ولكن الملك لم يعالج الأمر بنجاح ، بل على العكس ، طالب بأن تخضع لتصديقه كل قرارات الجمعية الكنسية والبرلمان . ودعا القساوسة إلى صوم عام ، وأعلنوا منذرين متشائمين ، أنه مهما حدث من شىء « فإنهم أبرياء من دم جلالته[١٠] » .

وتجمع حشد من المشاغبين حول المبنى الذى كان يقيم فيه جيمس (١٧ ديسمبر ١٥٩٦) فهرب إلى قصر هوليرود . وفى صباح اليوم التالى غادر إدنبره مع كل حاشيته . وأعلن إلى سكانها ، عن طريق مناد ينطق باسمه ، أنها لم تعد تصلح لتكون عاصمة ، وأنه لن يعـــود إليها إلا لتنفيذ الحكم على الثوار والعصاة ، وأمر كل الاكليروس وغير المتوطنين بمغادرة المدينة . ولما لم يجد المشاغبون أحداً ليقتلوه ، تفرقوا . وحزن التجار على فقدانهم ما كان يعود عليهم من ربح فى التعامل مع الحاشية . وتساءل المواطنـــون فى دهشة : هل كان النزاع يستحق الاستشهاد الاقتصادى ، وعاد جيمس إلى المدينة فى ظفر مشوب بالغضب (١ يناير ١٥٩٧) ،

وعرضت الجمعية العامة المنعقدة فى برث ، خضوع الكنيسة الوطنية الإسكتلندية ، ووافقت على ألايعين أى قسيس فى المدن الرئيسية دون موافقة الملك وشعب الكنيسة ، وألا يتعرض القساوسة فى خطبهم لقرارات البرلمان أو مجلس الشورى ، وألا يهاجموا شخص أى إنسان من فوق المنبر . وسمح للقساوسة البروتستانت بعد ذلك بالعودة إلى العاصمة (١٥٩٧) . ولكن أعيد نظام الأساقفة . وغطت هدنة كئيبة منكودة على الحرب القديمة بين الكنيسة والدولة .

وبرزت فى الأدب الإسكتلندى تلك فى الحقبة شخصيتان عظيمتان: الملك نفسه، وأشهر معلميه . وكانت سيرة حياة جورج بوكانان مدهشة ، فقد ولد فى سترلنجشير فى ١٥٠٦ ، ودرس فى باريس ، وخدم العلم فى فرنسا واسكتلندة ، ونهل الحماسة الفلسفية والسياسية من محاضرات جون ميجور ، وعاد من أجل الحب والعلم إلى باريس : ورجع أدراجه إلى اسكتلندة هرطيقاً هجاء لاذعاً ، وأودعه السجن الكاردينال بيتون ، فهرب إلى بوردو ، وقام هناك بتدريس اللاتينية ، وكتب قصائد ومسرحيات بلغة لاتينية جيدة إلى حد كبير ، وشاهد تلميذه مونتانى يمثل فى إحدى هذه الروايات ، ورأس إحدى الكليات فى كوامبرا ، وسجنته محكمة التفتيش الأسبانية لسخريته من الأخوة (فى فرقة دينية) ، وعاد إلى إسكتلندة وفرنسا ، ثم اسكتلندة حيث تولى تعليم مارى ملكة إسكتلندة (١٥٦٢) ، وعين رئيساً للجمعية العامة (١٥٦٧) وأعلن صحة « رسائل الصندوق الفضى » واتهم بتزييف قسم منها[١١] . وأدان — مارى بلا هوادة ولارحمة فى كتابه « كشف النقاب عن حكم مارى » (١٥٧١) وتولى التدريس لابنها على الرغم من اعتراضها على ذلك ، وتخلى عن هذه المهمة (١٥٨٢) . وجد وجاهد فى كتابه « تاريخ إسكتلندة » (١٥٧٩) لتخليص تاريخ بلاده من « القيود الإنجليزية والغرور الإسكتلندى » : وأكد من جديد فى رسالته « الحكم الشرعى فى إسكتلنده » — على الرغم من تلميذه الذى سيصبح عما قريب ملكاً مستبداً — أكد نظرية العصور الوسطى القائلة بأن المصدر الوحيد للسلطة السياسية ، بعد الله ، هو الشعب ، وأن كل مجتمع يرتكز على عقد اجتماعى ضمنى يقوم على التزامات وقيود متبادلة بين المحكومين والحكام ،

وأن لإرادة الأغلبية ، بحق ، أن تحكم الكل ، وأن الملك يجب أن يخضع للقوانين التى يقرها ممثلو الشعب ، وأنه يمكن بحق أيضا مقاومة الطاغية أو عزله أو قتله(١٢) . فأنت ترى أن أسطورة العقد الاجتماعى ظهرت هنا قبل هوبز بقرن من الزمان ، وقبل مجىء روسو بقرنين . وشجب البرلمان الاسكتلندى كتاب بوكانان ، وأحرقته جامعة أكسفورد ، ولكن كان له أثر شديد . وذهب صمويل جونسون إلى القول بأن بوكانان هو العبقرى الوحيد الذى أنجبته اسكتلنده(١٣) . وأسبغ هيوم ، فى تواضع ، هذا الامتياز على نابيير (عالم رياضيات اسكتلندى ١٥٥٠ — ١٦١٧ ، مخترع اللوغاريتمات) ، أما المؤرخ الاسكتلندى كارليل فقد خص به نوكس ، حيث كان من أشد المعجبين به . أمـــا جيمس السادس فقد كان له آراؤه الخاصة فى هذه المسألة .

وكان الملك مزهواً فخوراً بكتبه قدر زهوه وفخره بحقوقه وامتيازاته . وفى ١٦١٦ نشر مجلدا ضخما « أعمال الأمير الأعظم والأقوى جيمس » ، وهو مهدى إلى يسوع المسيح . وكتب قصائد ، ونصائح إلى الشعراء ، وترجمة « للمزامير » ، ودراسة لسفر الرؤيا ، ورسالة عن « الشياطين » وكتابين من (قطع الثمن) دفاعا من الملكية المطلقة ، أحدهما وهو « إلهبة الملكية » (١٥٩٨) كان كتاب نصائح لابنه هنرى فى فن الحكم وواجباته ، أكد حكم الكنيسة على أنه « ليس بالجزء اليسير من مهمة الملك » . أما الثانى وهو « القانون الحقيقى للملكيات الحرة » فقد شرح فيه الحكم المطلق ودافع عنه فى فصاحة هائلة : إن الملوك مختارون من عند الله ، مادامت الأحداث الهامة تفرضها العناية الإلهية ، وأن تعيينهم ومسحهم بالزيت يشكلان سرا مقدسا لا يجوز الطعن به ، مثلهما فى ذلك مثل أى سر مقدس آخر . ومن ثم كان لهم كل الحق فى أن يكون حكمهم مطلقا ، وأن معارضتهم تعتبر حماقة ، وجريمة ، وإثما من شأنه أن يفضى إلى الضرر أكثر من أى طغيان . إن هذا الذى كان بالنسبة لاليزابث أسطورة نافعة ، أصبح بالنسبة لجيمس مبدأ عاطفيا ، ولد لأم ملكة . وورث عنه ابنه شارل النظرية ، ودفع الثمن أو تلقى القصاص .

ومهما يكن من أمر فان انجلترا لم تتنبأ فى ١٥٩٨ بما حدث فى ١٦٤٩ ، وبعد

أن شوب جيمس نخب البروتستانتية وتعهد بالتزامها ، اعترف مجلس شورى الملكة اليزابث به وريثا للتاج الانجليزى ، عن طريق أمه ماري . وبعد مضى أربعة أيام على وفاة اليزابث ، بدأ جيمس (٥ أبريل ١٦٠٣) رحلة بهيجة مرحة من ادنبرة إلى لندن ، وتوقف ، متمهلا ، فى الطريق ، ليحتفى به النبلاء الانجليز ، وفى ٦ مايو وصل إلى المدن التى أخذت زخرفها وأزينت للترحيب به — انحنت الجماهير له ، وقبل اللوردات يديه . وبعد ألف سنة من صراع عقيم لا غناء فيه اتحدت الأمتان (ولم يتحد البرلمانان قبل ١٧٠٧) وهكذا كان عقم اليزابث نافعا مثمرا :

٢ — جيمس الأول ملك انجلترا : ١٦٠٣ — ١٦١٤

أى صنف من الرجال كان قد أصبح جيمس فى سبع وثلاثين سنة ؟ كان متوسط القامة ، ذا رجلين ضعيفتين ، وكرش صغير ، يرتدى سترة ضيقة وبنطلونا محشوين أو مبطنين حتى يمنعا وصـــول نصال السفاحين إلى جسمه ، وكان شعره ذا لون أسمر بنى ، وخداه متوردين ، وأنفه مكور ، تشع من عينيه الزرقاوين نظرات الارتياب والحزن ، وكأنما كان الرب خجلا من جسمه . وكان كسولا نوعا ما ، فآثر الراحة من عناء العمل ، اعتمادا منه على اليزابث ، وكانت لغته فظة ، يتميز لهوه وتسليته بالخشونة ، وكان يتمتم ويتلعثم كثيرا ، وكثيرا ما كان لسانه الخشن يفلت بغير حساب . وكان مزهوا كريما ، جبانا مخادعا ، لأنه كثيرا ما تعرض للخطر ، وخدع وغرر به ، مستعدا لتبادل الإساءة ، وليصفح ويلتمس الصفح ، من ذلك أنه عندما أنكر جون جب أنه ضيع بعض الوثائق الهامة ، فقد جيمس صوابه ، وركله بقدمه ، فلما عثر على الأوراق ، جثا أمام معاونه الذى أخزاه وأذله ، وأبى أن ينهض حتى يصفح عنه جب . وكان متسامحا وسط جو من التعصب وعدم التسامح . وكان فى بعض الأحيان صلبا قاسيا ، ولو أنه عادة حنون عطوف . وكان يرتاب فى ابنه هنرى لشعبيته البالغة ، ويحب ابنه شارل إلى حد الحمق . ولم تشب علاقته بالنساء أية شائبة ، ولكنه كان ميالا إلى ملاطفة الشبان الوسيمين . وكان يؤمن بالخرافات ، كما كان عالما . وكان سخيفا لاذعا ، يؤمن بالعفاريت والسحرة فى الوقت الذى يعطف فيه على بيكون وجونسون ، يحسد العلمـــاء ،

ويولع بالكتب ، وإن من أول قراراته بوصفه ملكا أنه منح جامعتى أكسفورد وكمبردج حق إرسال ممثلين لهما إلى البرلمان . ولما رأى مكتبة بودلى صاح قائلا : « لو لم أكن ملكا لآثرت أن أكان جامعيا ، ولو قدر لى أن أسجن ، وكانت لى الخيرة من أمرى ، لما آثرت مكانا أسجن فيه غير هذه المكتبة ، ملازما لهؤلاء المؤلفين الأفاضل والأساتذة الذين قضوا نحبهم(١٤) . وصفوة القول انه كان رجلا يعوزه الاتزان والحزم ، إلى حد ما ، ولو أنه كان فى قرارة نفسه سمحا ودودا ، يسخر منه الأذكياء ، ولكن يغفر له قومه ، لأنه حتى اقتربت نهايته المحزنة ، وفر لهم الأمن والطمأنينة والسلام .

ولم يكن جيمس يحب الماء كثيرا إلى حد أنه كره استخدامه لأغراض الغسل : وكان يدمن على الشراب ، وأباح فى بعض حفــلات حاشيته أن تسرف النساء والرجال فى الشراب حتى تلعب الخمر برءوس الجميع وينتهى الأمر إلى ثمل عاطفى. ودرجت الحاشية على الاسراف فى الملابس وفى الحفلات ، إسرافا لم يسبق له مثيل فى بلاط اليزابث . وكانت اليزابث تميل إلى التمثيليات التنكرية ، ولكن أما وقد كتب بن جونسون الرواية ، وصمم إنيجو جونز الملابس والمناظر ، وقام بالأدوار فيها اللوردات العظام والسيدات الفاتنات ، وكأنما ارتدى الجميع ، من شدة البذخ ، أموال المملكة ، فإن الفن الخــرافى الغريب غير الواقعى بلغ الآن ذروته . وبلغ الاستهتار والخلاعة. والفساد فى البلاط مبلغاً لم يسبق له مثيل . حتى جاء على لسان سيدة فى إحدى روايات جونسون قولها . « أعتقد أننى إذا لم أجد من يحبنى غير زوجى المسكين ، فلسوف أشنق نفسى (١٥) » . وقبل أفراد الحاشية « هدايا » قيمة مقابل استغلال نفوذهم فى الحصول على المراسيم والتراخيص والاحتكارات والمناصب لمن يطلبها . من ذلك أن البارون مونتاجو دفع عشرين ألفاً من الجنيهات مقابل تنصيبه وزيراً للخزانة(١٦) . وروى بسند ضعيف ، أن رجلا حساساً رقيقاً مرض وفاضت روحه عند ما سمع كم دفع أصدقاؤه مقابل تعيينه قاضياً محلياً(١٧) .

ولم يول جيمس مثل هذه المسائل كلها اهتماماً كبيراً : ولم يجهد نفسه كثيراً فى شئون الحكومة : وترك إدارة البلاد لمجلس الشورى الذى يتألف من ستة من

الإنجليز ومثلهم من الإسكتلنديين ، والذى يرأسه روبرت سيسل الذى عينه إرل سالسبورى (١٦٠٥) ؛ وورث سيسل كل شىء إلا الصحة . فقد أقعده عن الحركة ظهره الأحدب ، حتى بات منظره يبعث على الحزن والأسى . ولكنه تحلى بكل ما كان لأبيه من فطنة فى اختيار الرجال وتوجيههم ، وتشبث صامت وكياسة ماكرة ، تفوق بها جميعاً على منافسيه المحليين وعلى أفراد أى بلاط أجنبى . ولما مات « كلب الصيد الصغير » وقع جيمس تحت سيطرة شاب وسيم هو روبرت كار ، وعينه إرل سومرست ، فهيأ له أن يخلف فى مجال السياسة والإدارة ، من هم أكبر منه سناً ، وأكثر صقلا وعلما ، مثل فرانسيس بيكون وإدوارد كوك .

وكان كوك تجسيداً للقانون، وحارساً أميناً عليه ، اشتهرته محاكمته للورد إسكس فى ١٦٠٠ ، ورالى فى ١٦٠٣ ، والمشتركين فى مؤامرة البارود فى ١٦٠٥ ؛ وخرج على الناس فى ١٦١٠ برأى تاريخى :

> يبدو فى كتبنا أنه فى حالات كثيرة ، يطغى القانون العام على قرارات البرلمان ، وفى بعض الأحيان يعتبرها باطلة ؛ لأنه إذا كان قرار البرلمان مخالفاً للحق العام أو العقل . . . أو يستحيل تطبيقه ، فإن القانون العام لا بد أن يلغيه أو يقضى عليه بالبطلان(١٨) .

وربما كان البرلمان لا يسيغ مثل هذا الرأى ، ولكن جيمس عين كوك رئيساً للمحكمة العليا (١٦١٣) وعضواً فى مجلس الشورى ؛ وانقلب من كونه رجل الملك ، إلى رجل يزعج الملك ويقض مضجعه ، يستنكر البحث أو التحقيق فى الآراء الخاصة ، ويؤيد حرية أعضاء البرلمان فى الكلام ، وتناول بالتجريح سلطة الملك المطلقة فى مذكرات لاذعة تؤكد أن الملوك ليسوا إلا خدماً للقانون . وفى ١٦١٦ اتهمه منافسه بيكون بارتكاب أعمال محظورة ، وعزل كوك ، ثم أعيد إلى البرلمان ليستمر فى تزعم حركة المقاومة ضد الملك ؛ وأودع سجن لندن ١٦٢١ ، ولكن سرعان ما أطلق سراحه ؛ ومات غير نادم (١٦٣٤) ، مخلصاً أشد الإخلاص لنصوص القانون

وصرامته ، وترك لنا أربعة مجلدات من « مجموعة القوانين » لا تزال تشكل مرجعاً هاماً فى القضاء الإنجليزى(*) .

وفى نفس الوقت كان جيمس يتابع مع البرلمان مناقشته التى كان لا بد أن تتمخض فى عهد ابنه عن الحرب الأهلية وقتل الملك . إنه لم يكتف بممارسة كل السلطات التى كان هنرى الثامن واليزابث قد سيطرتا بها على مشرعيهما المتذمرين أو الذين روعهم التهديد ، إنه صاغ دعاواه على أنها أوامر إلهية : فأعلن إلى برلمان ١٦٠٩ :

> إن مقام الملكية هو أسمى شىء على الأرض ؛ لأن الملوك لا يقومون مقام الله على الأرض ويجلسون على عرش الله ، فحسب ، بل إن الله نفسه يسميهم آلهة أو أرباباً . . . إن الملوك يسمون بحق آلهة ، لأنهم يمارسون شيئاً شبيهاً بالسلطة الإلهية على الأرض . فانكم لو تدبرتم فى صفات الله لوجدتموها مجتمعة ومتفقة فى شخص الملك : إن الله قادر على الخلق أو التدمير والإفناء ، على البناء والهدم ، وفق مشيئته ، يبعث الحياة أو يرسل الموت ، يحاسب كل الناس ولا يحاسبه أحد . . . وللملوك نفس القدرة أو القوة : إنهم يصنعون رعاياهم أو يحطمونهم ، ولهم القدرة ، ولهم الكلمة العليا على كل رعاياهم ، وفى كل الأمور ، ومع ذلك لا يحاسبهم أحد إلا الله وحده . ولهم السلطة فى أن يجعلوا . . . من رعاياهم قطع شطرنج يحركونها كيف شاءوا — فالبيدق يطيح

(*) يروى أن زوجة كوك الثانية — وهى أرملة سيروليم هاتون كانت حاملا عندما بنى بها كوك ؛ وعندما آوى إلى الفراش وضع يده على بطنها فلاحظ جنيناً يتحرك ؛ فسألها : « ما هذا ؟ لحم فى الوعاء » . . . والا لما تزوجت طباخا (هذا تلاعب بالالفاظ فى الانجليزية Cook - Coke) ويمكن أن نضيف أنها كانت قد رفضت أزواج من منافسه بيكون .

بأسقف أو بفارس — فيرفعون أياً من رعاياهم إلى عنان السماء
أو يخسفون به الأرض ، وكأنما يتصرفون فى أموالهم(٢٠) .

وكانت هذه خطوة إلى الوراء ، لأن النظرية السياسة فى العصور الوسطى ، كانت قد جعلت الملك دوما . نائباً عن الشعب صاحب السيادة . والبابوات فقط هم الذين أعلنوا أنهم نواب الله على الأرض ؛ ولكى نضفى على هذه الدعوى أفضل واجهة فلسفية ، يجدر بنا أن نفترض أن البابوات — بوصفهم الرؤوس العليا للسيادة والسلطان فى العصور الوسطى ، كانوا قد آمنوا بأن الدوافع الفردية فى الإنسان قوية إلى حد أن الإبقاء على النظام الاجتماعى لا يتأتى إلا بأن يغرس فى نفوس الناس ، إجلال تقليدى للسلطة الدينية ، وللبابوات بوصفهم صوت الله وممثليه . ولكن إضعاف الإصلاح الدينى للسلطة البابوية أو هدمها . كان قد ترك السلطات السياسية مسئولة فى المقام الأول ، أو فى النهاية ، عن النظام الاجتماعى . وحكم هؤلاء أيضاً بأن السلطة البشرية الخالصة عرضة للتحدى ؛ إلى درجة أنها لاتقوى على كبح جماح النزعات غير الاجتماعية فى الإنسان ، بطريقة فعالة أو من الناحيه الاقتصادية. ومن ثم نمت نظرية حق الملوك الالهى ، جنبا إلى جنب ، مع تطور القومية والانتقاص من سلطة البابوات . وبعد أن تولى الأمراء اللوثريون فى ألمانيا ، السلطات الروحية التى كانت للكنيسة القديمة فى بلادهم ، أحسوا بأنهم محقون فى أن يحيطوا أنفسهم بالهالة الالهية التى اعتقد معظم الحكام والملوك قبل ١٧٨٩ أنها أساسية لا يستغنى عنها للسلطة الأدبية والسلام الاجتماعى . وأخطأ جيمس فى التعبير عن هذا الافتراض بوضوح أكثر مما ينبغى ، وفى أشد صيغة تطرفا .

وكان من الجائز أن يتقبل البرلمان ، قبولا نظريا (مع ابتسامات خاصة) هذه الاستبدادية الملكية ، إذا كان أعضاؤه ، كما كان الحال مع اليزابث وهى فى أوج عظمتها ، من كبار ملاك الأراضى — الذين كانوا مدينين للملوك التيودور بأعمال جليلة بطولية .ولكن مجلس العموم الآن كان يضم بين أعضائه البالغ عددهم ٤٦٧ عضوا ، كثيرا من ممثلى الطبقات التجارية الناشئة الذين لايستسيغون سيطرة ملكية بلاحدود على أموالهم — إلى جانب كثير من البيوريتانيين الذين ينكرون على الملك

دعواه فى أن يحكم ديانتهم . وحدد المجلس حقوقه فى إغفال جرئ لألوهية جيمس، أو حقوقه الإلهية . وأعلن أنه له القول الفصل فى صحة انتخاب أعضائه . وطالب بحرية الكلام ، وحصانة أعضائه ضد القبض عليهم فى أثناء انعقاده ، وأثبت أنه بغير هذا لا يكون للبرلمان أى معنى أو قيمة : واقترح أن يتولى التشريع فى المسائل الدينية ، وأنكر سلطة الملك فى الفصل فى مثل هذه المسائل دون موافقة البرلمان . على أن الأساقفة الأنجليكانيين على أية حال طالبوا بحق المجمع الكنسى الأنجليكانى فى الفصل فى الأمور الكنسية ، على أن تخضع قرارته لموافقة الملك . وأبلغ رئيس مجلس العموم جيمس أنه ليس للملك أن يسن قانونا ، ولكن يستطيع فقط أن يعتمد أو يرفض أى قانون يجيزه البرلمان : وأعلن المجلس فى يونية ١٦٠٤ : « أن امتيازاتنا وحرياتنا هى حقوقنا وتراثناالقانونى : : : وليست بحال من الأحوال أقل شأنا من أراضينا ومتاعنا . . . ولا يمكن انتزاعها منا ، دون أن يكون فى ذلك إساءة صارخة إلى المملكة بأسرها[٢١] » :

وهكذا نسجت خيوط النزاع التاريخى بين « حقوق » الملك و « امتيازات » البرلمان ، هذا النزاع الذى قدر له أن يخلق ديموقراطية انجلترا ، بعد مائة من السنين توالت فيها الانتصارات والهزائم :

٣ ــ مؤامرة البارود : ١٦٠٥

وفوق الصراع الاقتصادى والسياسى استعرت نار الحرب الدينية ، ضاربة فيه بجذور عميقة . وكانت معظم النشرات التى سممت الجو ، عبارة عن خملات عنيفة شنها البيوريتانيون على الأساقفة والطقوس الانجيليكانية ، أو الانجليكانيون على صرامة البيوريتانيين وعنادهم ، أو شنها هؤلاء وهؤلاء على مؤامرات الكاثوليك لإعادة انجلترا إلى حظيرة البابوية . ولم يقدر جيمس فظاعة هذه البغضاء ، وكان يحلم « بوفاق شبه ودى » بين البيوريتانيين والأنجليكانيين ، ولهذا الغرض دعا زعماء الفريقين إلى مؤتمر فى « هامبتون كورت » (١٤ ينـــاير ١٦٠٤) : ورأس هو الاجتماع ، وكأنه « قسطنطين آخر » ، وأدهش الطرفين كليهما بعلمه اللاهوتى

وبراعته فى الجدل والمناقشة ، ولكنه أصر على « مذهب واحد ، ونظام واحد ، وديانة واحدة شكلا وموضوعا[٢٢] » ، وأعلن أن النظـام الأسقفى أمر لا معدى عنه . وذهب أسقف لندن إلى أن الملك ملهم من عند الله ، « وأنه لم ير له مثيل منذ عهد المسيح[٢٣] » . ولكن البيوريتانيين شكوا من أن الملك تصرف وكأنه طرف فى الدعوى ، أكثر منه حكما أو قاضيا فيها ، ولم يتمخض المؤتمر عن شىء اللهم إلا القرار التاريخى الذى لم يكن يتوقعه أحد ، إلا وهو إعداد ترجمة جديدة للكتاب المقدس . وأصدر المجمع الكنسى الانجليكانى فى ١٦٠٤ بعض القوانين التى تطلب من كل رجال الدين اتباع قواعد الكنيسة الانجليكانية : وفصـل الذين رفضوا الامتثال ، وسجن آخرون ، واستقال كثيرون ، وهاجر فريق آخر إلى هولنده وأمريكا .

وجلب جيمس على نفسه الخزى والعار باحراق اثنين من طائفة الموحدين (الذين يرفضون التثليث ويقولون بالتوحيد) بتهمة الشك فى ألوهية المسيح ، برغم البراهين التى قدمها الملك إليهم (١٦١٢) . ولكنه أحسن صنعا فى أنه لم يجز بعـد ذلك الاعدام بسبب الخلاف الدينى ، فكان هذان الاثنان آخر من أى حتفه بتهمة الكفر فى انجلترا . وباطراد التحسن فى الحكومة الدنيوية ، أخذت تسود ، فى بطء ، الفكرة القائلة بأن التسامح الدينى ينسجم مع الأخلاق العامة والوحدة الوطنية ، وتغزو ما كان راسخا فى الأذهان ، بطريقة تكاد تكون شاملة ، من أن النظام الاجتماعى يتطلب ديانة وكنيسة لا ينازعهما أحد . وحاول ليونارد بوشر فى كتابه « السلام الدينى » (١٦١٤) أن يدلل على أن الاضطهاد الدينى يوسع هوة الخلاف ويؤدى حتما إلى النفاق . ويضر بالتجارة ، وذكر جيمس بأن « اليهود والمسيحيين والأتراك المسلمين متسامحون فى القسطنطينية ، ومع ذلك فهم جميعا مسالمون ، ويعيشون فى سلام[٢٤] » على أن بوشر هذا يرى أن الأفراد الذين تشوب عقيدتهم شائبة الخيانة — ولعله يقصد الكاثوليك الذين يرفعون البابا فوق منزلة الملك — ينبغى أن يحرم عليهم عقـد الاجتماعات ؛ أو الاقامة فى أبعد من عشرة أميال من مدينة لندن .

كان جيمس فى أغلب الأحوال دوجماتيا متسامحا (الجزمية ، الدوجماتية : توكيد الرأى أو القطع به ، بفطرته ودون مبرر كاف ، أو دون أن يكون مبنيـــا على مقدمات سليمة موثوقة) . لقد أغضب البيوريتانيين بتشجيعه الألعاب الرياضية فى أيام الآحاد ، شريطة حضور الصلوات الأنجليكانية أولا .وكان ميالا إلى إرخاءقبضة القانون على الكاثوليك . وبرغم معارضة روبرت سيسل والمجلس ، أوقف قوانين العصيان ، وأباح للقساوسة دخول الريف وإقامة القداس فى الدور الخاصة . وعلى طريقته الفلسفيةغير المحكمة ، راوده حلم التوفيق بين الكاثوليكية والبروتستانتية فى العالم المسيحى(٢٥) . ولكن عندما تكاثر عدد الكاثوليك بفضل هذه البارقة من النور والأمل ، وندد البيوريتانون بتساهله ، أجاز تجديد قوانين اليزابث المعادية للكاثوليك ، والتوسع فيها وتطبيقها (١٦٠٤) . من ذلك أن ارسال أى فرد للدراسة فى جامعة أو معهد لاهوتى فى الخارج كان يعاقب عليه بغرامة قدرها مائة جنيه . ونفيت وأبعدت كل الارساليات الكاثوليكية ، وحرم أى تعليم كاثوليكى ، وفرض على كل الكاثوليك الذين يمتنعون عن إقامة الصلوات الأنجليكانية غرامة قدرها عشرون جنيها فى الشهر ، ويستتبع أى تخلف عن دفع مثـــل هذه الغرامات مصادرة الممتلكات الأصلية أو الشخصية ، والاستيلاء على الماشية فى أرض المقصر فى الدفع ، وعلى أثاثه وملابسه ، لمصلحة التاج(٢٦) .

ورأى أشباه المخبولين من الكاثوليك أنه لم يعـــد أمامهم الآن من علاج لهذه الحالة إلا القتل . وكان روبرت كاتسبى قد شهد أباه يعانى من السجن بتهمة العصيان فى عهد اليزابث ، وانضم إلى ثورة اسكس ضد الملكة . وهو الذى فكر الآن فى مؤامرة البارود لنسف قصر وستمنستر ، فى الوقت الذى يجتمع فيه الملك والأسرة المالكة . واللوردات والنواب لافتتاح البرلمان . وأشرك معه فى المؤامرة توماس ونتر، وتوماس برسى ، وجون رايت ، وجى فوكس Guy Fawkes ، وتعاهد الرجال الخمسة فيما بينهم وأقسموا على سرية الموضوع ، ووثقوا عهدهم بتناول القربان المقدس من يد مبعـــوث جزويتى اسمه جون جيرار . واستأجروا دارا ملاصقة للقصر ، وظلوا يعملون ستة عشرساعة يوميا ليحفروا نفقا من قبو إلى قبو ، وأفلحوا

فيما أرادوا . ووضعوا ثلاثين برميلا من البارود تحت قاعة الاجتماع فى مجلس اللوردات مباشرة . وعطل تكرار تأجيل إنعقاد المجلس مرة بعد أخرى ، تنفيذ مشروع المؤامرة ، تعطيلا مشوباً بالقلق والشك . وطيلة عام ونصف العام كان على المتآمرين أن يزكوا نار الغضب فى صدورهم ، فكم خامرهم الشك فى فضيلة أو صواب مغامرة يروح ضحيتها كثير من الأرواح البريئة . مع من يظن الكاثوليك بلا هوادة ولا رحمة أنهم مذنبون . وسأل كاتسبى ، رغبة فى إعادة الطمأنينة إلى نفوس المتآمرين — سأل هنرى جارنت أسقف الجزويت فى انجلترا : هل يجاز فى الحرب الاشتراك فى أعمال قد تودى بحياة أناس غير محاربين . فأجاب جارنت بأن كل الشرائع السماوية تجيز هذا الأمر ، ولكنه حذر كاتسبى من أية مؤامرة على حياة العاملين فى الحكومة ، لن تجر إلا مزيداً من الشقاء على الكاثوليك الإنجليز ، ونقل الأسقف مخاوفه وشكوكه إلى البابا وإلى زعيم الجزويت ، فأمروه بالابتعاد عن كل دسائس سياسية ، وأن يحبط أية محاولات ضد الدولة(٢٧) . وأفضى كاتسبى إلى رجل آخر من الجزويت — اسمه أوزوالد جرينواى — « أثناء الاعتراف » بسر المؤامرة التى تضمنت الآن اتخاذ تدابير أخرى لقيام الكاثوليك فى انجلترا بثورة عامة . وأبلغ جرينواى زميله جارنت بالموضوع « وحار الرجلان الجزويتيان بين أمرين : إفشاء سر المتآمرين إلى الحكومة ، أو الصمت ، وآثرا السكوت ، ومع ذلك بذلا قصارى جهدهما ليثنيا المتآمرين عن تنفيذ خطتهم :

وسعى كاتسبى — ليخفف من وخز الضمير عند زملائه ومن مخاوفهم — إلى اتخاذ الترتيبات بأن يتسلم أعضاء البرلمان الموالين لهم ، فى صبيحة اليوم المحدد للاجتماع رسائل عاجلة تستدعيهم إلى خارج وستمنستر . وأنذر فرد صغير الشأن بين المتآمرين ، صديقة لورد مونتجال قبل موعد الانعقاد بعدة أيام . فأطلع مونتجال روبرت سيسل على جلية الأمر ، فنقل الخبر إلى الملك ، فدخل عملاؤهم وأعوانهم إلى الأقبية ، وهناك وجدوا فوكس ، كما وجدوا المتفجرات فى أماكنها ، وفى ٤ نوفمبر ١٦٠٥ قبض على فوكس واعترف بما كان يقصد إليه من نسف البرلمان فى اليوم التالى ، ولكنه على رغم التعذيب الشديد رفض الإدلاء بأسماء المشتركين

معه . ولكن هؤلاء على أية حال ، كشفوا عن أنفسهم بحمل السلاح ومحاولة الهرب . فطوردوا ، وجرى قتال أصيب فيه كاتسبي ، وبرسى ، ورايت ، بجروح قتالة ، وجرى البحث عن أتباعهم وأودعوا السجن. وعندما قدم المسجونون للمحاكمة اعترفوا صراحة بالمؤامرة . ولكن أى تهديد أو تعذيب لم يحملهم على توريط القساوسة الحزويت فيها . واقتيد فوكس وثلاثة آخرون ، وسط شوارع المدينة من السجن إلى دار البرلمان حيث أعدموا (٢٧ يناير ١٦٠٦) . ولا تزال إنجلترا تحتفل بيوم ٥ نوفمبر على أنه يوم جى فوكس ، بإطلاق الصواريخ والألعاب النارية وحمل تماثيل أو صور جى والطواف بها فى الشوارع .

وفرجيرارد وجرينواى إلى القارة ، ولكن قبض على جارنت ومعه جزويتى آخر يدعى أولد كورن . وفى السجن وجد هذان الاثنان من الوسائل ماحسباه سبيلا لاتصال خفى بينهما . ولكن الجواسيس نقلوا أحاديثهما بنصها . واتهم كل منهما على انفراد بهذه الأحاديث فأنكرها جارنت ، وأقرها أولد كورن . فاعترف جارنت بأنه كان كاذبا . وانهارت قواه فسلم بأنه كان على علم بالمؤامرة ، ولكن بما أن أنباءها وصلت اليه عن طريق جرينواى الذى تلقاها على انها سر من أسرار « الاعتراف » ، فإنه لم يشعر بأنه حر فى افشائها ، ولكنه على أية حال بذل كل مافى طاقته لإحباطها . فأدين بالتستر على المؤامرة ، لا بالتآمر . وتمهل الملك لمدة ستة أسابيع فى التصديق على الحكم باعدامه ، وأبلغوه كذباً أن جرينواى فى سجن لندن « البرج » فأرسل إليه خطاباً وضع الرقباء أيديهم عليه . وسئل جارنت عما إذا كان قد اتصل بجرينواى فأنكر ، فواجهوه بخطابه ، فدافع بقوله إن المراوغة مباحة لشخص فى سبيل إنقاذ حياته . وفى ٣ مايو أعدم شنقاً ، ومزق إرباً[٢٨] .

وأحس البرلمان أنه على حق فى تشديد القوانين ضد الكاثوليك ، فمنعوا من مزاولة الطب أو الاشتغال بالقانون ، ومن استخدامهم أوصياء أو حراساً قضائيين ، وحظر عليهم أن يبعدوا بأكثر من خمسة أميال عن مساكنهم ، كما طلب إليهم أن يؤدوا قسما جديداً ، لا ينكر سلطة البابا فى خلع الحكام المدنيين فحسب ولكنه كذلك يدمغ الإصرار على هذه السلطة بأنه عمل موصوم بالعقوق والفسوق والكفر ،

ديستوجب اللعنة[٢٩] . وحرم البابا بول الخامس تأدية ـــ مثل هذا القسم ، وامتثل للبابا أغلبية الكاثوليك الإنجليز وارتضت القسم أقلية كبيرة . وفى ١٦٠٦ أعدم ستة من القساوسة لرفضهم القسم وإقامتهم القداس . وفيما بين عامى ١٦٠٧ و ١٦١٨ أعدم ستة عشر آخرون[٣٠] . وامتلأت السجون بعدة مئات من القساوسة وعدة آلاف من الكاثوليك العاديين . وبرغم هذا الإرهاب كله ، استمر الجزويت فى دخول انجلترا ، ففى ١٦١٥ كان يوجد منهم ٨٠ على لأقل ، وفى ١٦١٣ ، كان منهم ٢٨٤[٣١] . وشق بعض الجزويت طريقهم إلى إسكتلنده . وهناك أعدم واحد منهم ـــ جون أوجيلفى ـــ فى ١٦١٥ ، بعد أن سحقت رجلاه فى « الدهق » (آلة التعـــذيب) ، وإبقائه يقظاً لمدة ثمانية أيام بليـــاليها بغرز الدبابيس فى لحمه[٣٢] . وهكذا وقعت أوزار الكنيسة القديمة على رأسها هى ، على يد الحقائق والقوى والسلطات الجديدة .

٤ — المسرح فى أيام جيمس

تابعت نشوة انجلترا مسيرتها فى الأدب ، كما تابعتها فى الدين . وإنى لأنسب إلى عصر جيمس ، النصف الأروع فى روايات شكسبير ، وكثيراً من روائع تشابمان ، ومعظم روائع جونسون ، ووبستر ، ومدلتون ، ودكر ، ومارستون ، وبعضاً من أحسن أعمال ماسنجر ، وكل روائع بومونت وفلتشر ، وفى الشعر دون ، وفى النثر بيرتون . وأروع وأكرم من هذا كله الكتاب المقدس ترجمة الملك جيمس ، وتلك أمجاد تكفى لأن يتألق بها أى عصر ، وكان الملك يتذوق المسرحية . وفى أحد الاحتفالات بعيد الميلاد مثلت أربع عشرة رواية فى البلاط الملكى . وفى ١٦١٣ احترق مسرح « الجلوب » عن آخره نتيجة إطلاق مدفعين استلزم إطلاقهما تمثيل رواية هنرى الثامن ، ولكن سرعان ما أعيد بناؤه . وفى ١٦٣١ كان فى لندن أو بالقرب منها نحو سبعة عشر مسرحاً .

وكان جورج تشابمان يكبر شكسبير بخمس سنوات ، وعمر بعده ثمانية عشر عاماً ، وشهد ثلاثة عهود (١٥٥٨ ـــ ١٦٣٤) . وشق طريقه فى أناة وروية

حتى صار فحلا فى فنه ، وكان فى ١٥٩٨ قد أكمل بنجاح رواية مارلو Hero and Leander ، ونشر سبعة كتب من الإلياذة ، ولكنه لم ينجز ترجمة هوميروس حتى ١٦١٥ ، وظهرت أحسن رواياته فيما بين ١٦٠٧ و ١٦١٣ . وفتح للمسرحية الإنجليزية مجالا جديداً ، حين اقتبس من التاريخ الفرنسى الحديث فكرة رواية Bussy d, Ambois (١٦٠٧؟) — خمسة فصول من الخطابة الصاخبة المليئة بالتهديد والوعيد ، لا يكاد يلطف من عنفها شىء من سحر البيان ، ولكنها تقوى إلى حد مزعج فى صحيفة يتبادل فيها بوسى وعدوه التحيات الساخرة التهكمية العسيرة الهضم قدر عسر هضم الحقيقة . ولم يفق تشابمان قط من التعلم أو لم ينقطع عنه ، فإن القدر الكبير الذى حصله من اليونانية ، والقدر الأكبر من من اللاتينية استحوذا على كل تأملاته وتفكيره ، بشكل خانق ، وإن قراءة رواياته اليوم لهى ضرب من الجهد المضنى لمجرد الاطلاع والدرس ، لا حباً فى الروايات أو الاستمتاع بها . ولن نبتهج كما فعل كيتس ، « لأول نظرة نلقيها على ترجمة تشابمان لهوميروس » . فثمة حيوية دافقة هنا وهناك فى الترجمة السباعية التفاعيل تسمو بها فوق ترجمة بوب ، التى هى أفضل بصفة عامة ، ولكن موسيقى الشعر تضيع فى الترجمة ، فإن التفاعيل السداسية الوثابة فى الأصل تداعبنا بتناغم أسرع مما تفعل التفاعيل الموزونة المقيدة فى الشعر المقفى . إن أية قصيدة إنجليزية طويلة مقفاة لم تتخلص من النعاس الذى يغلب على أناشيد بحارة البندقية . وحول تشابمان إلى « شعر ملحمى » أبياتاً عشرية المقاطع ليتفق كل اثنين فى القافية — حول الأوديسية فى ترجمته لها بنفس قوة التهدئة . ولابد أن جيمس غلبه النعاس تحت هذه الأغطية الثقيلة ، إلى جانب إيماءات هوميروس العارضة ، لأنه أهمل فى دفع مبلغ الثلثمائة جنيه التى كان الأمير الراحل هنرى قد وعد بدفعها إلى تشابمان ، عند إتمام الترجمة . ولكن ارل سومرست أنقذ الشاعر العجوز من الفقر .

وهل نتوقف قليلا عند توماس هايوود ، وتوماس مدلتون ، وتوماس دكر ، وسيريل تورنير ، وجون مارستون ، أو يسمحون لنا بأن نمر عليهم مر الكرام مع تحية متواضعة لشهرتهم المتأرجحة ، أما فلتشر ، فلن نستطيع أن نبخسه حقه .

فانه فى ذروة مجده (١٦١٢ ــ ١٦٢٥) رفعته انجلترا ، فى مجال المسرحية ، إلى المرتبة التالية لمرتبة شكسبير وجونسون . كان فلتشر ابن أحد أساقفة لندن ،وابن أخ أو ابن عم لثلاثة شعراء من طراز متواضع ، فرضع الشعر وتربى على القوافى، وأضاف هو إلى هذا التراث ماكسب من ميزة اشتراكه مع شكسبير فى « هنرى الثامن » ، « القريبان النبيــلان » ، ومع ماسنجر فى « الحورى الأسبانى » ، واشتراكه بأعظم النجاح مع فرانسيس بومونت .

ومن هذا الطرز أيضا ولد فرانك . وكان ابنا لأحد القضاة البارزين ، واخا لشاعر صغير الشأن ، ولد قبله بعام ومهد له طريق الحياة . وأخفق بومونت فى اتمام دراسته فى أكسفورد أوفى أحد معاهد الحقوق The Inner Temple وحاول أن يجرب قلمه فى شعر المرح ، وانضم إلى فلتشر فى كتابة الروايات . وشارك الأعزبان الوسيمان الواحد منهما الآخر ، فى الأكل والنوم ، والأمتعة والملابس ، والخليلات والأفكار، أوكما قال أوبرى « كانت ثمة امرأة شركة بينهما ، وكان ثمة تشابه غريب فى أفكارهماوصورهما الذهنية[٣٣] ». وتعاون الاثنان على مدى عشر سنوات فى إخراج روايات مثل The Maids' Tragedy, Loves Liesa·Bleeding, Philaster The| Knight of the Burning Pestle والحوار قوى ، ولكنه عاصف طنان ، وحبكات الرواية متشابكة تشابكا بارعا ، ولكن حل عقدها كان متكلفا. وقل أن ارتقى التفكير إلى مستوى الفلسفة . ومع ذلك فان هذه الروايات كما يؤكد لنا دريدن ــ كان لها فى أواخر القرن ، من الشعبية على المسرح ، ضعف ما كان لروايات شكسبير[٣٤] .

وتوفى بومونت فى سن الثلاثين ، فى العام الذى توفى فيه شكسبير ، وبعد ذلك كتب فلتشر بمفرده أو مع آخرين ، سلسلة طويلة من الروايات الناجحة التى جر عليها النسيان ذيوله ؛ ونبعت ملهاة من رواياته التى قامت على دسائس ملتوية صاخبةمرحة، نبعت من نماذج أسبانية ، كما أنها بدورها ــ بتركيزها على الزنى ــ مهدت للمسرحية فى « فترة عودة الملكية » . ولما تعب من هذه المناظر الدامية أو الداعرة ، أخرج فى (١٦٠٨) رواية رعوية « الراعية المخلصة » خالية من الهراء والحمق ، مثل

رواية شكسبير « حلم ليلة منتصف الصيف » . بل أنها تنافسها أحيانا من حيث الشعر . فان كلورين ، بعد أن مات حبيبها الراعى تأوى إلى كوخ ريفى بسيط بالقرب من مقبرته وتقطع على نفسها عهدا ألا تبرحه حتى يوافيها الأجل المحتوم :

سلاما أيتها الأرض المقدسة التى تحتضن بين ذراعيها البارد تين ،
أصدق رجل أطعم قطعانه على سهول تساليا الدسمة المثمرة ،
وهكذا أحيي جدثك ، وأوفى بنذورى الأولى ، وأقدم نظرات
الأكبار والاجلال لرفاتك التى لاتزال موضع حبى . وهكذا
أحرر نفسى من دفء وحرارة أى حب ينشأ من بعدك ، وأودع
كل رياضة أو بهجة أو ألعاب سارة ، يعتز بها الرعاة . ولن يتوج
بعد الآن جبينى بالأكاليل الغضة النضيرة ، لأتصدر حلبة
الرقص . ولن أفرح أو أبتهج بعد اليوم بصحبة الغادات اليانعات
والرعاة المرحين ، ولا بصوت المزمار ذى الأنغام العالية السارة فى
واد ظليل ، حين يداعب النسيم العليل الأغصان ، ولسوف أكون
بمنأى عن هذا كله ، مادمت أنت نأيت عنى ، يامن كنت أجلس
كثيرا إلى جواره السعيد متوجة بالأزهار الناضرة ، بوصفى ملكة
الصيف ، على حين يرتدى صبية الرعاة اللون الأخضر الزاهى
المفعم بالحياة ، مع المنجل المزوق . والحقيبة المتدلية المصنوعة
من الجلد الناعم الجميل . ولكنك وليت ، وقد ولت هذه
كلها معك ، لقد فنى كل شىء ، اللهم إلا ذكراك العزيزة ،
التى سوف تبقى من بعدك ، والتى سوف تنمو وتنتعش ، طالما
كانت هناك مزامير تصرخ أو رعاة مبتهجون يغنون .

وألقيت هذه القصيدة الرعوية مرة واحدة ثم اختفت من المسرح . وأى حظ من الطهارة والعفة لمثل هذه التسبيحة ، فى عصر لايزال يجيش بانفعالات عهد اليزابث ؟

أما أقوى الكتاب المسرحيين فى عهد جيمس وأسوأهم ، فهو جون وبستر . ونحن لانكاد نعرف شيئا عن حياته ، وهى فى الحقيقة مجهولة . ونحن نستنتج حالته النفسية من مقدمة أحسن رواياته « الشيطان الأبيض » (١٦١١) حيث يطلق على جمهور المشاهدين « الحمير الجهلة » ويشهد مقسما بأغلظ الأيمان « بأن الأنفاس التى تخرج من الجمهور العاجز كفيلة بأن تسمم أعمق مسرحية مأســوية . والرواية هى قصة فكتوريا أكورامبونى ، التى هزت آثامها ومحاكمتها كل إيطاليا (١٥٨١ — ١٥٨٥) أيام طفولة وبستر . وتحس فكتوريا بأن دخل زوجها لا يتفق مع جمالها ، فتستجيب لملاطفات دوق براتشيانو الثرى ، واقترح بأن يعمل هو على التخلص من زوجها ومن زوجته ، فيولى الموضوع عنــايته على الفور ، بمعونة أخ قواد فاجر لفكتوريا هو فلامنيو الذى كان يقدم لمثل هذه الجرائم أشد الأشعار سخرية فى الأدب الانجليزى . وقبض على فكتوريا للاشتباه فيها ، ولكنها تدافع عن نفسها فى جرأة وبراعة إلى حد يجعل أى محام يفزع من لغته اللاتينية وأى كاردينال من قلنسوته. ثم اختطفها براتشيانو من بين يدى العدالة . فطورد الاثنان وأخيرا ، قتل الاثنان مع من كانوا يتعقبونهما ، قتلة مفاجئة مثيرة أشبعت رغبة وبستر إشباعا تاما طيلة مسّة كاملة ، لقد عولجت حبكة الرواية علاجا حسنا ، ورسمت الشخصيات رسما متماسكا متناغما . وكانت اللغة غالبا قوية أوكريهة ، والمناظر العصيبة قوية . وارتفع الشعر أحيانا إلى مستوى فصاحة شكسبير . ولكن الرواية بالنسبة للذوق الذى أصابته المدنية بالوسوسة وشدة الحساسية ، شوهتها فظاظة فلامنيو المتكلفة وحيوته الحقيرة البائسة ، كما شوهتها اللعنات والشتائم التى انسابت حتى من أرق الشفاه . « أواه : لو أنى أستطيع قتلك أربعين مرة فى اليوم الواحد ، وأفعل هذا أربع سنوات سويا ، لكان هذا شيئا قليلا جدا » (٣٥) ، كما كان يشوه الرواية الفحش المنتشر فيها ، حيث ترددت لفظة « البغى » فى كل صحيفة بأخرى ، ثم الألفاظ المزدوجة المعانى التى ربما خجل منها شكسبير نفسه .

وعاد وبستر إلى الأرض المخضبة بدماء القتلى فى رواية « دوقة ملفى » (١٦١٣) فإن فرديناند دوق كالابريا ، يحرم على دوقة أمالفى ، أخته الشابة الأرملة الزواج

obeikandl.com

مرة ثانية ، لأنها إذا ماتت بلا زوج ، فإن أخاها الدوق يرث أموالها . فترثى الدوقة للطهارة المتكلفة التى أكرهت عليها :

إن الطيور التى تعيش فى المروج وفق هوى
الطبيعة الجـــامحة ، تحيـــا حياة أسعد من
حياتنا ، حيث تستطيع أن تختـــار رفيقاتها
وتشدو بألحانها العذبة للربيع(٣٦) .

واستبدت بها الشهوة والحرمان ، فأغرت قهرمانها أنطونيو بالزواج سراً ، وبمضاجعة عاجلة . فدبر أخوها فرديناند قتلها . وفى الفصل الأخير نرى شخصاً يقتل فى كل دقيقة تقريباً ، فالأطباء يستعدون بالسموم ، والمتوحشون بخناجرهم ، ولم يتذرع أحد بالصبر انتظاراً لقصاص عادل أو حكم مشروع . أما أسوأ الأشرار الأوغاد فى الرواية — الذى قتل الدوقة واستولى على ممتلكاتها ، واتخذ له خليلة ثم قتلها — فهو كاردينال ، ولم يكن وبستر من أنصار البابوية . وهنا أيضاً توجد توريات فى صراحة بالغة ، وتصميم على استنفاذ ألفاظ اللعنة والبغض ، واستنكار وحشى مشوش لحياة الإنسان . وترى شيئاً من النبل أو الإخلاص أو الرقة فى الأركان السحيقة لهذه الحلبة المظلمة ، فان فرديناند ينسى نفسه ، ويبتسم بالشفقة لبعض الوقت ، وهو ينظر إلى أخته التى لا تزال جميلة فى رقدة الموت .

« غطوا وجهها ! عيناى تنبهران ! لقد ماتت فى عنفوان شبابها(٣٧) !
ولكن سرعان ما يستعيد وحشيته .

ولنأمل فى شىء أعذب وأحلى من هذا كله عند الرجل الذى كتب « اشربى من أجلى أنا وحدى ، بعينيك » . Drink to me only with thline Eyes

٥ — بن جونسون : ١٥٧٣ ؟ — ١٦٣٧

ولد فى وستمنستر بعد وفاة أبيه بشهر واحد ، وعمد تحت اسم بنيامين جونسون ؛ وأسقط من اسمه حرف الباء تميزاً لشخصه ، ولكن دور الطباعة ظلت تستخدمه ،

ولو أنه مات ، حتى ١٨٤٠ ، ولا زال يظهر على لوحة معلقة على جدران كنيسة وستمنستر . وكان الزوج الأول لأمه قسيساً . وكان زوجها الثانى بناء بالأجر . وكانت الأسرة فقيرة معدمة . وكان على بن أن يشق طريقه إلى التعليم بصعوبة بالغة . وما كانت إلا الشفقة التى ملأت قلب صديق بصير لتزوده بالمال ليلتحق بمدرسة وستمنستر ، وساقه حظه إلى الوقوع تحت إشراف « وكيلها » المؤرخ العالم الأثرى وليم كامدن ، وإنصرف إلى الدراسات القديمة ، مع عداء أقل من العادى ، وأحب شيشرون وسنكا ، وليفى وتاسيتس ، وكونتليان ، وزعم بعد ذلك ، وواضح أنه على حق — « أنه يعرف من اليونانية واللاتينية أكثر من شعراء انجلترا جميعهم[٣٨] » على أن « مرحه » السريع الاهتياج والإثارة ، وعالم لندن الخشن العنيف بلا حدود ، هما اللذان حالا دون أن يدمر تعليمه فنه .

وبعد تخرجه فى وستمنستر التحق بكمبردج حيث « بقى — كما يقول أول مؤرخ لحياته — أسابيع قليلة ، لحاجته إلى مورد رزق آخر [٣٩] » ، وأراد له زوج أمه أن يكون صنى بناء ، وقد نتخيل بن جونسون وهو يتصبب عرقاً ويضطرب لمدة سبع سنين دأبا ، وهو يرص الطوب ويفكر فى الشعر . ثم فجأة خرج إلى الحرب ، وانساق فى تيارها ، واندفع إليها بنشاط وحيوية أكثر منه إلى صناعة البناء . وخدم فى الأراضى الوطيئة ، وبارز جندياً من الأعداء ، فصرعه ، وسلبه ما معه ، وعاد إلى الوطن يروى قصصاً مفصلة . وتزوج وأنجب أطفالا ، وارى منهم التراب ثلاثة أو أكثر . ووقع الشجار بينه وبين زوجته ، فهجرها لمدة خمس سنوات ، ثم عاد وعاش معاً عيشة ينقصها الوفاق والانسجام حتى ماتت . ولا تعرف كليو نفسها كيف كان بن جونسون — زوجها — يدبر معاش الأسرة .

ويكون السر أعمق حين نعلم أنه أصبح ممثلا (١٥٩٧) ، ولكن تفجرت منه أفكار مشرقة وأشعار ابقة . واهتز فرحاً حين دعاه توم للمشاركة فى رواية « جزيرة الكلاب » ولا شك فى أنه حمل نصيبه من السئونية فى « المادة المثيرة للفتنة والتى تتضمن قذفاً وتشويهاً للسمعة » التى وجدها مجلس الشورى فى الرواية . وأمر المجلس بوقف التمثيل وإغلاق المسرح والقبض على المؤلفين . أما ناش الذى كان خبيراً

عتيقاً بمثل هذه المآزق ، فقد قضى نحبه فى يارموث . ووجد جونسون نفسه فى السجن ، ولما كان نظام السجن يقتضيه أن يدفع نفقة طعامه وإقامته وأصفاده فقد اقترض أربعة جنيهات من فيليب هنسلو ، فلما أطلق سراحه انضم إلى فرقة هنسلو (وشكسبير) المسرحية (١٥٩٧) .

وبعد سنة ، كتب ملهاته الهامة الأولى : « Everyman in his humour » ورأى شكسبير يمثل فيها فى مسرح « الجلوب » . ومن الجائز أن المؤلف المسرحى العظيم (شكسبير) لم يستسغ مقدمة الرواية التى اقترحت — على الرغم من النموذج السائد — اتباع الوحدات الكلاسيكية ، أو التقليدية القديمة ، وحدة العمل والزمان والمكان ، لا أن :

> تجعل طفلا ملفوفاً الآن فى قماطه ، ينهض حتى يستوى رجلا ويطوى ، بلحية وملابس حداد . ستين عاماً مضت ، إنك سوف تسر اليوم إذ تشهد رواية يجب أن تحتذى مثالها كل الروايات . رواية ليس فيها كورس ينطلق بك فيما وراء البحار ، ولا عرش ينهار . مما يفرح له الأولاد . . . بل فيها أعمال ، ولغة مثل تلك التى يستخدمها الناس ، وأشخاص ممن يجب أن تنتقيهم الملهاة ، إذ كان لها أن تصور الزمان ، وتسلى الناس بحماقات الإنسان لا بالجرائم .

وهكذا أدار جونسون ظهره للمزاح أو الهزل الارستقراطى فى ملهيات شكسبير الأولى ، وللجغرافيا والكرونولوجيا وتعيين تواريخ الأحداث وترتيبها وفقاً لتسلسلها الزمنى الخارقتين فى المسرحية « الرومانتيكية » . وأتى بأكواخ لندن إلى المسرح ، وتخلى عن ثقافته ومعرفته الواسعتين الخارقتين ليبرز إبرازاً مشهوداً لهجات الطبقات الدنيا وأساليبها . وكان أبطال الرواية رجالاً كاريكاتورية أكثر منها ابتكارات فلسفية معقدة ، ولكنهم يعيشون . وكانوا تافهين لا قيمة لهم ، ولكنهم من بنى الإنسان ، ولم يكونوا معقولين ولا مهذبين ، ولكنهم لم يكونوا قتلة ولا سفاحين .

وكان اللاتينيون قد استخدموا لفظة Umor لتعنى « الرطوبة » أو السائل ، كما استخدمت تقاليد أبقراط الطبية لفظة Humor لتدل على أربعة سوائل فى الجسم — الدم ، البلغم ، الصفراء السوداء ، والصفراء الصفراء . وتبعا لغلبة الواحدة أو الأخرى من هذه المواد فى جسم الانسان ، كان يقال إنه ذو « مزاج » دموى ، (متفائل) ، أو بلغمى (بارد) ، أو سوداوى (مكتئب) ، أو صفراوى (سريع الغضب) أما جونسون فقد حدد تفسيره لهذا الاصطلاح :

عندما تتملك إنسانا صفة بعينها ، وتسيطر على كل أحاسيسه
وأنشطته وقواه ، حتى تسير كلها فى اتجاه واحد — فهذا
مايمكن أن يقال عنه بحق « المزاج » (Humour)(٤٠)

وظهرت الكلمة فى التصوير المرح للكابتن بوباديل ، وهو تحدر مباشر من رواية باريس « المحاربون الأمجاد » ، ولكنه يمور مورا « بمزاجه » الخاص به المميز له ، ومرحه غير الواعى — فهو دوما شجاع إلا عند الخطر ، مندفع إلى القتال إلا عندما يتحداه أحد ، فهو رب السيف المكنون فى غمده .

واستقبلت الرواية استقبالا حسنا ، وكان فى مقدور بن الآن أن ينغمس فى حماقات الشباب وشهواته على نطاق أوسع ، وكان فرحا بالثقة ، مزهوا بأنه شاعر يتحدث إلى اللوردات فى أنفة وكبرياء ، ويقف راسخ القدمين ، يتعجل التمتع ويستسيغ الصراحة والمرح الصاخب ، ويغوى النساء من آن لآن ، ولكنه أخيرا (كما قال لدروموند) « آثر جور الزوجة على خفر الخليلة(٤١) » — وهجر التمثيل ، وعاش عيشة طائشة على قلمه ، وازدهر لبعض الوقت بتأليف التمثيليات التنكرية للبلاط ، وتلاءمت الأشعار الخيالية التى نظمها مع المناظر التى صممها جونز ، ولكن بن كان حاد الطبع ، فكثرت مشاجراته . فى عام نجاحه الأول اشتبك مع أحد الممثلين ، وهو جبرييل سبنسر ، وبارزه وقتله ، فأودع السجن بتهمة القتل (١٥٩٨) . ومما زاد الطين بلة ، أنه ارتد إلى الكاثوليكية فى السجن ، ولكنه مع ذلك حوكم محاكمة عادلة ، وأجيز له أن يدفع « بالحصانة الاكليريكية » لأنه تلا « المزامير » باللاتينية « كما يفعل رجل الدين » . وأطلق سراحه

بعد أن وشم ابهامه بحديد محمى بحرف T ، حتى يمكن فى الحال اكتشاف أنه مجرم عائد ، إذا ارتكب جريمة القتل مرة ثانية ، وظل بقية حياته مدموغا بأنه مجرم .

وبعد سنة قضاها مطلق السراح أعيد إلى السجن من أجلى دين عليه لم يسدده . ومرة أخرى أطلق سراحه بكفالة هنسلو . وفى ١٦٠٠ سعى جونسون وراء تسديد ديونه بكتابة رواية Every Man out of His Humour . وأثقل الملهاة باقتباسات زخرفية كلاسيكية ، وأضاف إلى أشخاص المسرحية ثلاث شخصيات استخدمت كفرقة للتعليق على الأحداث ، وأمطر بوابل من المذمة والقدح ، البيويتانيين الذين « كان الدين بين طيات ثيابهم ، والذين حلقوا شعر رءوسهم أقصر من شعر حواجبهم » ولوح بمعرفته وعلمه للكتاب المسرحيين الذين كانوا يحطمون « وحدات أرسطو » . وبدلا من الروايات الرومانتيكية المستحيلة الحدوث حول اللوردات الذين لا يصدق وجودهم ، عرض جونسون أن يكشف للندن عن ذاتها بلا هوادة ولا رحمة :

> فليواجهوا مرآة كبيرة قدر كبر المسرح الذى نمثل عليه ، وسوف يرون فيها علل العصر ونقائصه . مشرحة تشريحا دقيقا مفصلا فى كل ناحية فيها ، فى شجاعة لاتلين ولا تفتر . وفى ازدراء لأى خوف(٤٢)

وصنعت رواية من العداوات أكثر مما جلبت من أموال . وليس من يوصى اليوم بقراءتها . ولما لم يكن جونسون راضيا عن جمهوره الصاخب فى مسرح الجلوب ، فانه كتب ملهاته الثانية Cynthia's Revels (١٦٠١) لفرقة من الممثلين الشبان ونخبة صغيرة من الجمهور فى مسرح « Black Friars » ، وأحس دكروارسون أن الرواية تناولتهما بالهجاء. ولما استشاطت فرقة تسمبرلين غضبا لمنافسة أولا دمسرح « Black Friars » لها ، أخرجت فى ١٦٠٢ رواية دكر « Satiromastix » (ضرب المؤلف الهجاء بالسياط) وفيها تشهير بجونسون بأنه سفاح وبناء تافه مغرور متحذلق ، جسمه ملىء بالبثور . وانتهى الشجار بتبادل المديح وتقارض الثناء : وابتسم الحظ

بعض الوقت. واستضاف أحد المحامين النابهين بن جونسون فى بيته وأرسل ارل بمبروك إلى الشاعر عشرين جنيها « ليشترى بها كتبا(١٣) » . وما أن أصبح فى أمان من الفقر والحاجة حتى أمسك بالقلم مجاولا تأليف « مسرحية مأساوية » ، موضوعها « سيجانوس » الصديق الشرير الأثير لدى تيبيريوس . واعتمد فى روايته بدقة على كتابات تاسيتس وسوتونيوس وديوكاسياس وجوفينال ، وأخرج تحفة رائعة ثقافية فيها بعض مناظر مؤثرة (الفصل الخامس — ١٠ مثلا) وأبيات من الشعر الرائع . ولكن جمهور المشاهدين كره الخطب الطويلة والتوجيه الأخلاقى الممل الصادر عن شخصيات تعوزها الحيوية . وسرعان ما سحبت الرواية من المسرح . وطبع جونسون النص ، وأورد على الهامش مراجعه القديمة مع بعض ملاحظات باللاتينيـــة . وتأثر لورد Aubigny ، فهيأ للمؤلف المحزون مأوى آمنا لمدة خمس سنوات .

وعاد جونسون إلى الحلبـــة فى ١٦٠٥ بأعظم رواية له « Volpone — أو الثعلب » ، هاجم فيها ، فى هجاء مقذع شهوة المال التى اجتاحت لندن ؛ وكما هو مألوف فى الملهاة — من عهد بلوتس إلى رواية The Admirable Crichton — فان محور الرواية هو خادم ماهر . ويحضر الخادم موسكا (ذبابة بالايطالية) إلى سيده البخيل فولبون (الثعلب) الذى يدعى أنه مريض مرضا شديدا ، مجموعة من صيادى الميراث الوصيـــة — فولتوز : نسر ، ثم كورباتشيو : غراب ، ثم كورفينو : غراب أسحم — وكل منهم يترك للسيد المريض (الثعلب) هدية ثمينة ، على أمل أن يسمى وريثا له . ويتقبل « الثعلب كل هدية بنهم جشع ، إلى حد استعارة زوجة كورباتشيو لليلة واحدة. وينتهى الأمر بأن يخدع الخادم موسكا سيده فولبون حتى يعينه هو وريثا وحيدا له . ولكن بوناريو (الطبيعة الطيبة) ، يكشف الحيلـــة ، ويرسل مجلس السناتو فى البندقيـــة كل الممثلين تقريبا إلى السجن . وجعلت هذه المسرحية ، آخر الأمر ، رواد مسرح الجلوب يركعون بين يدى جونسون .

وسرعان ما انتقل من نجاح إلى محنة . فقد اشترك مع مارستون وتشابمان فى

مسرحية **Eastward ho** (١٦٠٥) واعتقلت الحكومة المؤلفين على أساس أن الملهاة أساءت إلى الاسكتلنديين : وهدد المعتقلون بقطع أنوفهم وآذانهم ، ولكن أفرج عنهم دون أن يمسوا بأذى ، واشترك بعض ذوى المقامات الرفيعة — مثل كامدن وسلدن — فى المأدبة التى أقامها الثالوث الذى استرد حريته . ثم ، فى ٧ نوفمبر ١٦٠٥ ، استدعى جونسون إلى مجلس الشورى ، باعتباره كاثوليكيا يمكن أن يكون لديه معلومات عن مؤامرة البارود . وعلى الرغم من أنه كان قد تناول العشاء مع المدبر الرئيسى كاتسبي ، قبل ذلك بشهر ، فانه تفادى كل تورط فى المسألة . ولكن فى ٩ يناير ١٦٠٦ دعى إلى المحكمة بوصفه متمردا مخالفا للقانون . ولما كان فقيرا معدما إلى حد لا يستطيع معه دفع غرامة مجزية ، فان المحكمة لم تتشدد فى الاتهام . وفى ١٦١٠ ارتد إلى المذهب الأنجليكانى ، فى حماسة بالغة إلى حد أنه أتى على كل مافى كأس النبيذ حين جلس إلى « العشاء الربانى »(٤٤)

وفى تلك السنة أخرج أشهر مسرحياته « الكيميائى القديم **The Alchemist** »، وهجا فيها ، لا مجرد الكيمياء القديمة (محاولة تحويل المعادن الخسيسة إلى ذهب)، وهذه مسألة تافهة ، بل هجا كذلك ألوانا كثيرة من الدجل والخداع التى غزت لندن بالشعوذة . إن سير ابيقور مامون واثق من أنه وقف على سر الكيمياء القديمة فيقول :

« الليلة سأحول كل مافى بيتى من معدن إلى ذهب ، وفى الصباح الباكر أرسل إلى كل المشتغلين بالقصدير والرصاص ليبيعونى مالديهم من هذا وذاك، وأرسل إلى لوثبرى من أجل كل مافيها من نحاس .... ولسوف أشترى ديفونشير وكورنوال ، وأجعلهما مثل جزر الهند الشرقية تماما . فإنى أريد أن يكون لى من الزوجات والخليلات مثل ما كان لسليمان ، الذى كان عنده خاتم مثل ماعندى . وسيكون لى بفضل إكسير الحياة

ظر قوى صلب مثل هركيوليز ، فأصرع من الأعداء خمسين
فى الليلة الواحدة . أما المتملقون لى فسيكونون من الكهنة ،
الأطهار الوقورين ، الذين يمكن أن أستحوذ عليهم بمالى ....
وسيقدم لى اللحم فى أصداف هندية وأطباق مصنوعة من
الذهب ومرصعة بالعقيق والزمرد والصفير والياقوت الأزرق
والأحمر . أما ألسنة الشبوط (سمك نهرى) ، والسنجاب ،
وكعوب الأبل ... والفطر العتيق ، والصدور المكسوة بالدهن
لخنزيرة سمينة حامل ، والتى قطعت لتوها :... فسأقول عنها
لطباخى « هاك الذهب » فتقدم ، ولتكن فارسا(٤٥) :

وقلما كان سيرابيقور تافها ، ولكن بقية أشخاص الرواية كانوا حثالة ، وكان كلامهم بغيضا بما احتوى من معالجة موضوعات الدعارة القذرة ، وإنه لما يدعو إلى الأسى والحسرة أن نرى بن المثقف خبيرا بهـذا الغثاء وتلك النفاية ، وبلغة الأكواخ واللصوص والمتشردين . وهاجم البيوريتانيون مثل هذه الروايات تجاوزا ، فانتقم منهم جونسـون بتصويرهم فى صور كاريكاتورية ساخرة فى رواية The Bartholomew Fair ١٦١٤ .

وأخرج مسرحيات هزلية أخرى كثيرة مفعمة بالحياة ممتلئة بالعكارات

وتمرد هو نفسه فى بعض الأحيان على واقعيته الخشنة ، فى مسرحية « الراعى الحزين » وأطلق لخياله العنان ليسرح دون مبالاة :

إن وطء أقدامها لا يثنى ورقة عشب ،
أو يهز الطائر الأزغب فى عشـه
ولكنها مثل الرياح الغربية الخفيفة انطلقت مسرعة
وحيثما ذهبت تعمقت جذور الأزهار
وكأنما زرعتها بأقدامها العطرة(٤٦) .

ولكنه ترك الرواية دون أن يكملها ، وقصر رومانتيكيته ، (أو خياله

وعواطفه) بقية حياته ، على أغنيات رقيقة تناثرت فى ملهاواته ، مثل الجواهر وسط القـــاذورات ، من ذلك أنه فى ملهاة « الشيطان حمار The Devil is an Ass » (١٦١٦) ، يغنى فجأة :

هل شهدت الا سوسنة متألقة تنمو
قبل أن تمسها الأيدى الخشنة ؟
هل شهدت إلا تساقط الثلوج
قبل أن تلطخها التربة ؟
أو لم تلمس فراء السمـــور
أو ريش البجعة قط ؟
وهل نشقت رائحة براعم الورد البرى
أو رائحة النارديين ودو بحترق ؟
وهلا تذوقت شهد النحلة ؟
أوه ! يا لبياضها ، أوه ! يالرقتها ، أوه ! يا لحلاوتها ؟

وأجمل من هذا بالطبع ، أغنيـــة « إلى ســـليا To Celia » التى سرقها من اليونانية من فيلوستراتوس ، وحولها بدقة وبراعة إلى « اشربى من أجلى أنا وحدى بعينيك » .

وبعد موت شكسبير أصبح جونسون الرئيس المعترف به لجماعة الشـــعراء . وأصبح شاعر البلاط غير المتوج فى انجلترا — ولو أنه لم يعين رسميا ، ولكن الحكومة اعترفت به فى معظم الأحوال ، ومنحته معاشا سنويا قدره مائة قطعة ذهبية ، وأدرك الأصدقاء الذين التفوا حوله فى حانة مرميد أن طبيعته الطيبة الجافة تختفى وراء مزاجه الحاد ولسانه السليط ، فأفادوا من حديثه المثمر ، وهيأوا له أن يلعب دور الزعامة كما كان الحال مع سميه فى القرن التالى .

وكان بن آنذاك بدينا ، كما سيكون الحال مع سميه صمويل جونسون فيما بعد ، وما كان أكثر وسامة ولارشاقة ، وكم حزن على « كرشه الفظيع » ووجهه المتجعد

المملوء بالبثور نتيجة الأسقربوط . وقل أن زار صديقا دون أن يكسر كرسيا . وفى ١٦٢٤ نقل الندوة إلى « حانة الشيطان Devil Tavern » فى شارع فليت ، وهناك التقى بانتظام مع جماعة نادى أبوللو الذى كان قد أسسه هو من قبل. ليتزودوا بالطعام والشراب والدعابة وثمار الفكر ،وكان لجونسون مقعد مرتفع فى أحد طرق الغرفة له درابزين يؤدى بجسمه الضخم إلى العرش . وجرى العرف على تسمية أتباعه « قبيلة بن » ، وكان من بينهم جيمس شيرلى وتوماس كارو وروبرت هرك. الذين سموه القديس بن (٤٧) » .

وكان جونسون فى حاجة إلى صبر أيوب ، وهو غير مفطور على الصبر ، ليحتمل الفقر والمرض فى السنين التى كان يتحطم فيها . وقدر أن كل رواياته لم تدر عليه إلا مبلغا يقل عن مائتى جنيه كان ينفقها بسرعة ، ويتضور جوعا طيله الأيام التى لا يعمل فيها . وكان يفتقر إلى شئ من الحاسة أو الخبرة المالية التى جعلت شكسبير خبيرا فى إقتناء الأملاك الثابتة أو العقار ، وتابع شارل الأول صرف المعاش المخصص لجونسون ، ولكن عندما خفض البرلمان المخصصات الملكية . لم يكن المعاش يدفع دائما . على أن شارل أرسل إليه مائة جنيه فى ١٦٢٩ وقرر رئيس كنيسة وستمنستر وجماعة الرهبان فيها خمسة جنيهات «لمستر بنيامين » جونسون فى أيام مرضه وفاقته(٤٨) ولم تصب رواياته الأخيرة أى نجاح ، وذبلت شهرته ، وأختفى أصدقاؤه ، وقضت زوجته وأولاده نحبهم ، وماجاءت ستة ١٦٢٩ حتى عاش وحيداً قعيداً ، ملازما الفراش بسبب الشلل ، مع سيدة عجوز تتولى العناية بأمره . وظل يعانى من المرض والفقر ثمانى سنوات أخرى ، ودفن فى وستمنستر ، ونقش جون يونج على حجر يواجه القبر . العبارة المشهورة :

« أى بن جونسون الفذ »

ولم يبق منها إلا الكلمتان الأوليان . ولكن أى انجليزى مثقف متعلم يستطيع أن يكمل العبارة

٦ — جون درن ١٥٧٣ — ١٦٣١

فى مؤتمر هامبتون كورت اقترح مندوب بيوريتانى ترجمة جديدة للكتاب المقدس

فاعترض أسقف لندن بأن الترجمات الموجودة صالحة تماما . فقاطعة الملك جيمس وأمر بأن تتخذ إجراءات خاصة لترجمة رسمية موحدة يقوم بها أفاضل العلماء فى كلتا الجامعتين ، ويراجعها الأساقفة ثم تقدم إلى مجلس الشورى ، ثم يعتمدها الملك حتى يمكن تلاوتها دون غيرها فى كل الكنائس (٤٩) » . ونهض بهذه المهمة سير هنرى سافيل وستة وأربعون عالما آخرون ، مستندين إلى ترجمات ويكلف وتندال القديمة ، وأنجزوا عملهم فى سبع سنين (١٦٠٤ — ١٦١١) وأصبحت هذه الترجمة المعتمدة » رسمية فى ١٦١١ ، وكان لها أثرها البالغ على الحياة والأدب الحديث فى إنجلترا . ودخل إلى اللغة الانجليزية من هذه الترجمة ألف من العبارات البليغة ، وكان تقديس الانجيل آنذاك قويا جداً فى هذه البلاد البروتستانتية ، ولكنه الآن تزود بدفعة جديدة من القداسة والاقبال عليه فى انجلترا ، كما إزدادت معرفة البيوريتانيين ثم الميثوديين ثم الكويكرز بنصوصه والتعبد به ، بشكل لا يعدله إلا حب المسلمين للقرآن الكريم وتمسكهم به . وكان أثر الترجمة عل أسلوب الأدب الإنجليزى مفيدا كل الفائدة ، فقد وضعت حدا للتعقيدات الطويلة الغريبة فى النثر الإنجليزى فى عهد اليزابث ، وانتهت به إلى جمل قصيرة قوية واضحة طبيعية وأحلت محل المصطلحات والتراكيب الأجنبية ألفاظا أنجلوسكونية واصطلاحات انجليزية مفعمة بالحيوية . وكان فيها ألف من الأخطاء العلمية ، ولكنها حولت العبرية الرفيعة واليونانية العادية فى الكتاب المقدس بقسميه إلى أروع تحفة فى النثر الانجليزى .

وثمة مؤلفان آخران من النثر الرفيع ميزا هذا العصر . كتاب سير والتر رالى « تاريخ العالم » (وهو ثانيهما فى الظهور) ، وكتاب روبرت بيرتون « تشريح الكآبة Anatomy of Melancholy (١٦٢١) (*) — وهو المرجع الضخم الذى وضع فيه قسيس سان توماس فى أكسفورد نبذاً مما جمعه من المعلومات اللاهوتية

(*) اكتسب بعض النثر العادى منزلة تاريخية : من ذلك نشرات الاخبار التى كانت تملأ لندن فى أيام جيمس ، والتى تدرجت فى ١٦٢٢ حتى أصبحت أول صحيفة انجليزية باسم "الانباء الاسبوعية" "The Weekly News"

والتنجيمية ، والقديمة والفلسفية . وحسب أساتذة الجامعة أول الأمر أنه « مرح فكه ظريف » ولكنه أصبح فى حياته فيما بعد مكتئبا إلى حد أنه لم يكن يسره ويسعده إلا بذاءة بحارة الزوارق فى نهر التاميز[٥٠] . وللتخلص من كآبته «التهم » «بيرتون» « المؤلفين » الذين أمدته بهم مكتبة بودليان . وفى هذه الكتب وفى مخطوطه وفى علم التنجيم وفى الخدمات الكهنوتية ، قضى أيامه الكئيبة ولياليه المتلألئة بالنجوم . وحسب طالعه الخاص ، وتنبأ باليوم الذى سيوافيه فيه الأجل المحتوم بدقة ، إلى حد أن تلاميذ اكسفورد ارتابوا فى أنه شنق نفسه ليثبت أنه يعلم الغيب[٥١] .

أنه نشيط مفعم بالحيوية فى كتابه . ولما شرع فى فحص وسواس المرض عنده ووصف العلاج له ، وجد أن الاستطراد ألطف من خطته . وبالمرح الشاذ ، الذى يشبه مرح رابليه فى موضوعاته غير المطروقة ، ناقش كل شىء عن غير قصد كما كان يفعل مونتانى ، ويتبل صفحاته هنا وهناك بشىء من اللاتينية واليونانية ، ويغرى قارئه شيئا فشيئا بشكل لطيف ، إلى لا شىء ، وهو لايدعى الأصالة ، ويشعر بأن كل التأليف سرقة : « ما أرانا نقول إلا معادا من لفظنا مكرورا ، وربما كان الانشاء والمنهج من عندنا فحسب[٥٢] . » ويعترف بأنه عرف الدنيا عن طريق الكتب وعن طريق الأنباء التى تتسرب إلى اكسفورد فحسب .

أنى لأسمع أنباء جديدة كل يوم ، كما أسمع الاشاعات العادية عن الحرب والطاعون والحرائق والفيضانات والسرقات ، وحوادث القتل والمذابح والنيازك والمذنبات والأطياف والأعاجيب والأشباح ، وعن المدن التى تم الاستيلاء عليها . والمدن التى حوصرت فى فرنسا وألمانيا وتركيا ، وإيران وبولنده .... الخ والتجمعات والاستعدادات اليومية وغيرها ، مما يتم فى هذه الأيام العاصفة : فتنشب المعارك ، ويذبح كثير من الرجال ، كما نسمع عن غرق السفن وأعمال القرصنة والمعارك البحرية ، ثم الصلح وتكوين العصبات ، ثم تكون خدع حربية وإنذارات جديدة ، أنها فوضى هائلة من العهود

والرغبات والأعمال والقرارات ، والظلامات والقضايا البينات والدفوع والقوانين والتصريحات . . . . والآراء والانشقاقات والهرطقات .... والأعراس ، والمسرحيات التنكرية وشعارات الرياء والحفلات ، واحتفالات اليوبيل.... والجنازات(٥٣)

وأنه ليحس (مثل ثورو) أنه إذا قرأ أخبار يوم واحد ، فقد يكتفى بها ويأخذها قضية مسلمة بقية العام ، مع مجرد تغيير فى الأسماء والتواريخ . وهو يرتاب فى أن الانسان سائر على طريق التقدم ، ومع ذلك يقول « لسوف أصنع يوتوبيا (دنيا مثالية) خاصة بى ... أتحكم فيها بمحض حريتى » ويصفها فى تفصيل خيالى غريب . والواقع ، على أية حال ، أنه كان يؤثر تصفح الكتب فى هدوء فى مكتبه, أو على ضفاف التاميز ، على الانصراف إلى إصلاح البشر . ويقدم له كل مؤلفى العالم أحسن ما لديهم ، ويثقل كاهله ما يجمع من اقتباسات ، فيعود مكتئبا مغتما من جديد ، وبعد مائة وأربع عشرة صحيفة ممتلئة ، يعقد العزم على التوصل إلى أسباب الكآبة ، وهى الخطيئة ، والشهوة الجامحة ، والافراط ، والشياطين . والسحرة ، والنجوم ، والامساك ، والاسراف الجنسى ، .... وأعراضها (أى الكآبة) ومن بينها : « ريح تقرقر فى البطن .... وتجشؤات كريهة .... وأحلام مزعجة(٥٤)». وبعد أن أكمل مائتى استطراد ، تراه يصف أنواع العلاج للكآبة : الصلوات ، الغذاء ، الدواء ، الملينات ، إدرار البول ، الهواء الطلق ، الرياضة ، الألعاب ، الحفلات المسرحية ، الموسيقى ، الصحبة المرحة ، النبيذ ، النوم ، فصد الدم ، الاستحمام . ثم يستطرد من جديد ، إلى حد أن كل صحيفة تغدو مخيبة للآمال ومفرحة معا — إذا توقف سير الزمن .

أما فى الشعر فقد اختفى شعراء « السونيت » ، وظهر « شعراء ما وراء الطبيعة » : ريتشارد كروشو ، أبراهام كاولى ، جون دون ، جورج هربرت — الذين عبروا فى جمال وديع ، عن الهدوء والتقوى فى بيت الكاهن الأنجليكانى ، ولقد سماهم صمويل جونسون « ميتافيزيقيين » ، من ناحية واحدة فقط ، لأنهم نزعوا إلى الفلسفة واللاهوت والجدل ، وأساسا لأنهم اختاروا عن ليلى ، أوجونجورا ، أو البلياد — أساوبا يتميز بالبديع والنزوات اللغوية ، والذكاء اللفظى والتركيبات

المعقدة ، والمقتطفات الكلاسيكية ، والغموض المتكلف . على أن شيئاً من هذا كله لم يحل دون أن يكون « دون » أرق شعراء العصر .

وعاصر جون دون — مثل جونسون وتشابمان — ثلاثة عهود : ففى عهد الزابث كتب فى الحب ، وفى عهد جيمس عن التقوى ، وفى عهد شارل عن الموت ؛ ومنذ نشأ كاثوليكياً ، وتعلم على أيدى الجزويت وفى أكسفورد وكمبردج ، فقد خبر مرارة الاضطهاد وهدأة الاختفاء . واعتقل أخوه هنرى لإيوائه كاهناً محكوماً عليه بالموت ، وقضى هنرى نحبه فى السجن ، وزاد من اكتئاب جون انصرافه فى بعض الأحيان إلى كتابات سانت تريز ولويس دى جرانادا الروحية . ولكن فى ١٥٩٢ نبذ عقله الفتى النابض بالحيوية ، ما ورد فى ديانته من معجزات وكرامات ، وحام فى العقد الثالث من عمره حول المغامرات العسكرية والجنسية وفلسفة التشكك :

ولفترة من الزمن قصر جون دون شعره على الاتصال الجنسى غير المشروع صراحة ، ففى القصيدة رقم ١٧ من قصائده التأملية التى تعروها الكآبة ، امتدح « أحلى شىء فى الحب : التنوع (لذة الهوى فى التنقل) :

ما كان أسعد آباءنا فى الزمان الأول
أولئك الذين لم يجدوا فى تعدد العشاق جرماً(٥٥) .

وفى قصيدته التأمليـــة رقم ١٨ سبح فى « الدردنيل بين ستوس وأبيدوس فى صدرها » وفى القصيدة رقم ١٩ « إلى حبيبته وهى تأوى إلى مخدعها » نزع عنها ثيابها ، وفى خيال واسع ، طلب إليها : اسمحى ليدى « أن تجوسا حيث تشاءان » ؛ وخلط بين علم الحشرات والعشق ، وحاول أن يبرهن على أنه ما دام أن البرغوث عضهما معاً فانه قد خلط دمه بدمها فقد تزوجا آنذاك بالدم ، ومن ثم يسرحان فى نشوة لا إثم فيها(٥٦) : ولكنه أتخم بالمظاهر فسئمها ، ووجد أنه ليس كريماً منه أن يرتكب الفاحشة مع كرائم السيدات ، ونسى مفاتنهن الموقوتة ، ولم يتذكر إلا الحيل التى كن قد تعلمنها من دنيا لا قلب لها ، وصب على عشيقته جوليا أكبر

اللعنات ، ونصح قارئه أن يختار رفيقة طبيعية غير متكلفة لأن « الحب المبنى على الجمال ، سريع الفناء مثل الجمال(٥٧) » ثم أنشد مقطوعة شعرية مضادة لفيللون ، ووضع ميثاقاً شعرياً كان كل مقطع فيه يهوى على « العشق » بضربة قاتلة .

وفى ١٥٩٦ أبحر مع اسكس ، وساعد فى الحملة على قادس ، وأبحر معه ثانية فى ١٥٩٧ إلى جزر الآزور وأسبانيا. ولما عاد إلى انجلترا وجد وظيفة محترمة ، سكرتيراً لسير توماس أجرتون « حامل الأختام الملكية » ، ولكنه هرب مع ابنة أخيه وتزوجها (١٦٠٠)، ونشط فى أن يعولها بالشعر ، وواتاه الأولاد بمثل السهولة التى واتته بها القوافى . وغالباً ما عجز عن غذائهم وكسائهم ، وساءت صحة زوجته ، وكتب يدافع عن الانتحار . وأخيراً رق قلب سير أجرتون فارسل إلى الأسرة مبلغاً من المال (١٦٠٨) ، ووهبها سير روبرت دروري مسكناً فى قصره (١٦١٠) فى Drury Lane . ولكن بعد عام واحد فقد سير روبرت ابنته الوحيدة ، فنشر دون ، بلا توقيع ، أولى قصائده العظمى ، رثاء لها ، بعنوان An Anatomy of The world ، وفيها ضخم من موت اليزابث دروري تضخيما حتى جعل منه فناء الإنسان ثم الكون باسره :

وهكذا يفنى العالم منذ اللحظة الأولى . . . .
وتدعو الفلسفة الجديدة كل الناس إلى الشك .
وخمد عنصر النار ،
وضاعت الشمس والأرض . ولا يستطيع عقل أى إنسان
أن يوجهه التوجيه الصحيح للبحث عنها .
ويعترف الناس صراحة أن الدنيا قد ولت ،
على حين أنهم فى الكواكب وفى القبة الزرقاء
يلتمسون الكثير من الجديد ثم يرون أن كل هذا
قد انهار من جديد . . . .
لقد تفتت كل شىء ؛ وضاع التماسك ،
كل الزاد الكريم ، وكل علاقة(٥٨) .

وهكذا حزن لأنه يرى كيف أن هذه الأرض « عرجاء مشلولة » . وكانت يوماً مشهد الافتداء السماوى ، والآن فى الفلك الجديد ، مجرد « ضاحية » للدنيا . وفى إحدى حالاته النفسية نراه يمجد « الظمأ المقدس إلى العلوم » . وفى حالة أخرى يتساءل متعجباً هل سينتهى العلم بالجنس البشرى إلى الدمار

إنا نحارب أنفسنا بالأمراض الجديدة
وبالفيزياء الحديدة هناك آلة جديدة للحرب أسوأ كثيراً(٥٩) .

وكذلك تحول إلى الدين . فان تكرار مصابته بالأمراض والعلل ، والموت المشئوم لأصدقائه الواحد بعد الآخر ، انتهيا به إلى خشية الله فانه . ولو أن عقله ظل يحاول فى اللاهوت : فانه كان قد تعلم ألا يثق فى العقل كذلك ، على أنه عقيدة أخرى . وقرر أن المذهب القديم يجب قبوله دون مزيد من النقاش ، إذا كان يوفر هدوء البال ولقمة العيش . وفى ١٦١٥ صار قسيساً إنجليكانيا ، ولم يقتصر حينئذ على إلقاء المواعظ فى نثر كئيب مؤثر . ولكنه نظم كذلك بعضاً من أكثر الأشعار الدينية تاثيراً فى اللغة الإنجليزية . وفى ١٦١٦ عين قسيساً خاصاً لجيمس الأول ، وفى ١٦٢١ أصبح رئيس كهنة سانت بول . ولم ينشر قصائده الغنائية الخمسية التى نظمها فى شبابه ، ولكنه كان قد سمح بتداول نسخ مخطوطة منها ، أما الآن فانه — كما روى جونسون « يندم أشد الندم ، ويسعى إلى إعدام كل قصائده(٦٠) » . وكتب بدلا منها « قصائد مقدسة من نوع السونيت ، وتحدى الموت . وهو يصغر فى الظلام .

أيها الموت . لا تزه ولا تتكبر . ولو أن بعضهم قد أسموك
جباراً رهيباً ، لأنك لست كذلك .
لأن هؤلاء الذين تظن أنك صرعتهم
لا يموتون . أيها الموت الحقير ، إنك كذلك لن تستطيع أن تصرعنى ...
لقد انقضت غفوتنا القصيرة ، ولسوف نكون فى يقظة أبدية .
ولن يكون ثمة موت بعد الآن ، ولسوف تموت أنت أيها الموت(٦١) .

وبعد أن أبل من مرض شديد ، كتب فى مذكراته فى ١٦٢٣ ، سطوراً مشهورة : « إن موت أى رجل يهد من كيانى لأنى جزء متشابك فى الجنس البشرى ، ومن ثم لا أرسل

أحدا لأستفسر عمن تنعى النواقيس ، إنها تنعانى أنا(٦٢)» . وفى أول يوم جمعة من الصوم الكبير ١٦٣١ ، نهض من فراش مرضه ليلقى العظة التى بادر الناس فقالوا انها عظة جنازته هو ، وكان معاونوه قد حاولوا أن يثنوه عن الكلام ، لما رأوا (كما قال صديقه المخلص ايزك والتون) أن علته قد اشتدت حتى تركته مجرد جلد على عظم(٦٣) » ؛ وما أن انتهى من إلقاء موعظته التى كان فيها فصيحا فى التعبير عن الايمان بالبعث ، « مبتهجا أشد الابتهاج لأن الله أعانه على القيام بهذا الواجب المرغوب فيه ، حتى أسرع إلى بيته الذى لم يغادره ... إلا محمولا على أيدى رجاله الأتقياء إلى قبره (٦٤) » . ووافاه الأجل (٣١ مارس ١٦٣١) بين ذراعى أمه التى كانت قد احتملت صابرة آثامه ، كما استمعت فى حنان وعطف إلى عظاته .

لقد كانت حياة حافلة متوترة ، انتظمت كل العواطف من شهوة وحب ، وشك وانحلال ، واختتمت فى عزاء دفئ ، هو عزاء الايمان القديم . إننا نحن أبناء اليوم الذين يسارع إلينا النعاس حين نقرأ سبنسر ، لنجد أنفسنا ، وقد هزها من سباتها هذا الواقعى الخيالى على نحو عجيب ، هذا الروح الوسيط معا ، عند قراءة كل صفحة من صفحاته تقريبا . إن شعره خشن ، ولكنه هكذا أراده : إنه نبذ اللطائف المتكلفة فى حديث الالزابيين واستطاب الألفاظ التى لم تبل جدتها ، وبحور الشعر الأخاذة . وأحب الأنغام الناشزة المتنافرة التى يستطيع تحويلها إلى أنغام متناسقة لم تألفها الأذن . ولم يكن ثمة شىء مبتـــذل فى شعره بعد أن تخرج فى المواخير . إن هذا الرجل الذى صقل الفحش ، كما صقله كاتوللوس من قبل ، اكتسب من رقة الشعور والفكر ، ومن أصالة فى العبارة والعاطفة ، مالم يضارعه فيه شاعر آخر فى ذلك العصر ، اللهم إلا شكسبير نفسه .

٧ — جيمس يثير العاصفة ١٦١٥ — ١٦٢٥

إن الحب والدبلوماسية رفيقان شيمتهما الخيانة والغدر . ففى ١٦١٥ أحب الملك جيمس ، بأسلوبه الرقيق ذى الوجهين ، جورج فلير Villiers ، الشاب الوسيم الجرىء الثرى ؛ ذا الثلاثة والعشرين ربيعا ، فخلع عليه لقب ارل ، ثم مركيز ثم

دوق بكنجهام ، ثم بعد ١٦١٦ أطلق يديه فى توجيه سياسة الدولة . وكانت زوجة بكنجهام ، ليدى كاترين مانرز تتبع الطقوس الإنجليكانية فى الظاهر ، ولكنها فى أعماق قلبها كاثوليكية ، وكان من الجائز أن تقنعه بصداقة أسبانيا .

إن الملك چيمس نفسه كان رجل سلام ، ولم يكن ليدع اللاهوت أو القرصنة تتورطه مع القارة . وما أن تولى العرش حتى وضع حداً للحروب الطويلة التى كانت إنجلترا قد شنتها على أسبانيا . ولما فقد فردريك أمير البلاتينات (إقليم غرب الراين) — وزوج ابنة چيمس المحبوبة اليزابث — أمارته فى بداية « حرب الثلاثين عاما » ، راود چيمس الأمل فى أن استرضاء ملك أسبانيا وهو من (آل هبسبرج) استرضاء جادا كريما ، قد يؤثر على امبراطور آل هبسبرج فرديناند الثانى ، فيسمح لفردريك باسترداد عرشه . وأثار چيمس استياء الشعب واشمئزازه حين اقترح لهذا الغرض على فيليب الرابع زواج أخته « الأميرة ماريا » الأسبانية من الأمير شارل .

ولقى رالى نهايته الأليمة ضحية السياسة الأسبانية . وكان رالى يعارض سراً إرتقاء چيمس عرش إنجلترا ، كما كان يعارض بشدة اسكس ، سند چيمس ومؤيده . وسرعان ماوصل چيمس إلى لندن حتى فصل رالى من جميع مناصبه الحكومية . وبانفعال واندفاع تميز بهما والتر ، سمح لنفسه بالتورط فى عدة محاولات لخلع الملك (٦٥) . فأودع السجن ، واحتج بأنه برئ وحاول الانتحار . وحوكم ، وأدين بناء على أدلة مشكوك فى صحتها ، وحكم عليه بالإعدام ، فى ١٣ ديسمبر ١٦٠٣ وقاسى كل ألوان التعذيب ، على أنه خائن . وفى ٨ ديسمبر كتب إلى زوجته رسالة تفيض رقة وتقى — لم يشهدها العالم فيه من قبل . ورفض چيمس توسلات الملكة والأمير هنرى للعفو عنه . ولكنه سمح للسجين بالبقاء على قيد الحياة لمدة خمس عشرة سنة أخرى ، مع بقاء حكم الإعدام سيفا مصلتا على رأسه ، وسمح لزوجة رالى بالإقامة معه فى بيت صغير بناه فى تخوم البرج (السجن) . وأمده أصدقاؤه بالكتب وأجرى بعض التجارب الكيميائية ، ونظم بعض القصائد الرائعة ، وألف كتابه « تاريخ العالم » . وبدأ الكتاب — كما نشر ١٦١٤ بمقدمة ورعة مشوشة معقدة مطولة مملة ، تكشف عن عقل منهوك شديد الاضطرابات والحبل . وبدأت القصة

بتينوى ، وانتقلت عبر مصر وجنوب فلسطين ، وإيران وكلديا واليونان وقرطاجة ، وانتهت برومه الامبراطورية . ولم يحرص رالى على الوصول إلى الأزمنة الحديثة « لأن من يتوخى الصدق كل الصدق فى كتابة التاريخ ، قد لاينجو من الأذى » وتحسن أسلوبه بمتابعة الكتابة ، حتى بلغ مرتبة عالية فى وصف معركة سلاميس ، وبلغ الذروة فى المناجاة الختامية « للموت البليغ العادل الجبار (٦٨) » .

ولكن رالى لم يرتض الهزيمة ولم يقنع بها ، ففى ١٦١٦ ، بعد أن جمع ١٦٠٠ جنيه ، رشا دوق بكنجهام ليتوسط له لدى الملك (٦٩) ، ووعده ، فى حال إطلاق سراحه ، بالإبحار إلى أمريكا الجنوبية ، ليكشف عما ظن أنه مناجم الذهب الغنية فى جويانا ، ويعود بالغنائم الملكية للخزانة الظمأى . فأفرج عنه جيمس افراجا مؤقتا مشروطا ، ووافق على أن يحتفظ رالى وشركاؤه بأربعة أخماس أية كنوز قد يستولى عليها من « الوثنيين المتوحشين » ولكن الملك الحذر البعيد النظر أبقى حكم الإعدام نافذ المفعول إغراء بحسن السلوك . وأشار السفير الأسبانى كونت جوندومار إلى أن هناك فى جويانا جاليات أسبانية ، ورجا ألا يضاروا أو يعكر صفوهم . فما كان من جيمس الحريص على السلام ، وعلى المصاهرة مع أسبانيا ، إلا أن حظر على رالى — تحت طائلة تنفيذ حكم الإعدام — التدخل فى شئون أية جاليات مسيحية فى أى مكان والأسبانية منها بوجه خاص (٧٠) ، ووافق رالى كتابة على هذة التحذيرات (٧١) ، واستمر جوندومار يعترض ويحتج ، فما كان من جيمس إلا أن أقسم على تنفيذ حكم الإعدام إذا خالف رالى تعليماته (٧٢) .

وجهز رالى بمعونة أصدقائه ، أربع عشر سفينة أبحر بها فى ١٧ مارس ١٦١٧ إلى مصب نهر الأورينوكو . ولكن مستوطنة سانتا توماس الأسبانية اعترضت الطريق عبر النهر إلى المناجم المزعومة ، وتلك مسألة أسطورية تماما . ونزل رجال رالى إلى البر — وبقى هو على ظهر السفينة — وهاجموا القرية وأحرقوها وقتلوا حاكمها . وفترت همة القوة المنهوكة بما لقيت من مقاومة أسبانية بعد ذلك ، وتخلت عن ضالتها المنشودة فى الذهب ؛ وعادت صفر اليدين إلى السفن .

وانخلع قلب رالى عندما علم أن ابنه قد ذبح فى الهجوم ، وأنب الرجل الذى يليه فى القيادة ، فانتحر الرجل نتيجةلذلك . ولكن رجال رالى فقدوا ثقتهم به، وتخلت السفن عن أسطوله الواحدة بعد الأخرى ، ولما عاد إلى انجلترا ، ووجد أن الملك غاضب عليه أشـــد الغضب ؛ أجرى مفاوضات للهرب إلى فرنسا ، ولكن قبض عليه ، فعاود محاولة الهرب ، ووصل إلى جرينتش ؛ ولكن جاسوسا فرنسيا غدر به ، فقبض عليه وأودع السجن ، وأمر الملك ، الذى كان يستحثه جوندومار، بتنفيذ حكم الاعدام .

وكان رالى ، آخر الأمر ، قد سئم الحياة ورحب بنعمة الموت العاجل ، فسار فى ٢٩ أكتوبر ١٦١٨ ، إلى ساحة الاعدام فى وقار هادىء ، جعل منه بطل شعب بمقت أسبانيا . وقال للموكلين بتنفيذ الحكم : « هيا ، أنجزوا مهمتكم ، لقد حانت ساعتى ، ولن أدع أعدائى يظنون أنى أرتعد فرقا » . واختبر بابهامه نصل البلطة ثم قال « هذا علاج ناجح عادل لكل ما أعانى من مرض وشقاء(٧٣) » وطالبت زوجته الوفية بجثته ودفنتها فى إحدى الكنائس . وكتبت « لقد أنعم علىّ السادة بجثته ، ولو أنهم أنكروا علىّ حياته . اللهم احفظ على عقلىّ وألهمنى الصبر(٧٤) » .

إن رحلة رالى كانت واحدة من رحلات كثيرة ، حملت رعايا جيمس إلى أمريكا ، يحدوهم الأمل . فالفلاحون المتلهفون على امتلاك أرض خاصة بهم ، والمغامرون الذين يجرون وراء الثراء من التجارة أو الأسلاب ، والمجرمون الذين يريدون الافلات من قبضة القانون ، والبيوريتانيون المصممون على رفع راية مذهبهم فوق أرض عذراء — هؤلاء جميعا وغيرهم ركبوا الصعاب وتحملوا مشاق البحر ليؤسسوا « انجلترا » جديدة فى كل مكان . فأسست فرجينيا فى ١٦٠٦ — ١٦٠٧ ، وبرمودا فى ١٦٠٩ ، ونيوفوندلند فى ١٦١٠ ، وهرب رجال الدين « الانفصاليون » الذين رفضوا كتاب الصلوات والطقوس الخاصـــة بالكنيسة الأنجليكانية ، إلى هولنده مع أتباعهم فى ١٦٠٨ . ومن دلفت (يولية ١٦٢٠) وسوثمبتون ويليموث (سبتمبر) أبحر هؤلاء الحجاج عبر الأطلسى . وبعد ثلاثة

أشهر من المحن والمخاطر . ألقوا مراسيهم على صخرة بليموث (٢١ديسمبر) .

وفى آسيا . اقتصرت شركة الهند الشرقية الانجليزية على ٣٠ ألف جنيه و ١٧ سفينة . حاولت بها عبثا أن تنتزع الثغور والطرق التجارية من شركة الهند الشرقية الهولندية التى كان لها ٦٠ سفينة و ٣٤٠ ألف جنيه ، ولكن بعثة سير توماس رو (١٦١٥) انتهت إلى إنشاء مستودعات تجارية فى أحمدأباد وسورات وأجرا ، وغيرها ، فى الهند . وأنشىء وعزز بالأسلحة فورت سان جورج ، لحمايتها (١٦٤٠) . لقد اتخـــذت الخطوات الأولى لتأسيس الامبراطورية البريطانية فى الهند .

وعلى الرغم من مغريات المصالح التجارية ، والاستحثاثات البرلمانية والغيرة الوطنية الشعبية ، ظل الملك جيمس لمدة ستة عشر عاما متمسكا بسياسة السلام ، وتوسل إليه مجلس العمـــوم أن يدخل حرب الثلاثين عاما إلى جانب البروتستانت المهددين بالخطر فى بوهيميا وألمانيا . وأهاب به أن يزوج ابنه الوحيد الباقى على قيد الحياة ، لا من أميرة أسبانية ، بل من أميرة بروتستانتية . وندد بتراخيه فى تنفيذ القوانين المعادية للكاثوليكية ، وحثه على الأمر بفصل الأطفال الكاثوليك عن آبائهم ، وأن ينشأوا على البروتستانتية ، كما حـــذره مجلس العموم من أن التسامح لابد أن يؤدى إلى نمو كنيسة كاثوليكية مفطورة صراحة على التعصب وعدم التسامح(٧٥) .

إن اختلاف وجهات النظر بين البرلمان والملك فى ١٦٢١ كاد أن يكون بمثابة تجريب للصراع بين البرلمان الطويل وشارل الأول (١٦٤٢) . واستنكر النواب اسراف البلاط ، والاحتكارات الدائبة على تعويق التجارة ، وفرضوا الغرامة والنفى على المحتكرين ، رافضين دفاعهم بأن الصناعة الناشئة لابد من حمايتها ضد المنافسة . فلما أنب جيمس مجلس العموم على تدخله فى أعمال « السلطة التنفيذية » أصدر المجلس (فى ١٨ ديسمبر) « الاحتجاج الأعظم » التاريخى الذى أكد من جديد أن « الحريات والاعفاءات والامتيازات ، وسلطة البرلمان ، هى التراث القديم وحق المولد غير المشكوك فيهما لأبناء انجلترا » . وأضاف : « أن المسائل الشائكة العاجلة

التى تتعلق بالملك والحكومة والدفاع عن المملكة .. كلها موضوعات ومادة صالحة للمشورة والنافشة فى البرلمان(٧٦) » . ومزق جيمس فى غضب شديد ، من مضبطة البرلمان ، الصفحة التى دون فيها الاحتجاج ، وحل البرلمان (٨ فبراير ١٦٢٢) وأمر بأن يودع السجن أربعة من الزعماء البرلمانيين : سوثمبتون ، سالدن ، كوك ، بيم ، وعجل بتحقيق رغبة بكنجهام فى التحالف العسكرى مع أسبانيا .

وأغرى الوزير المستهتر آنذاك مليكه بأن يسمح له فى اصطحاب الأمير شارل إلى مدريد ، متباهياً ، ليرى الأميرة الأسبانية ، ويتمم الزواج ، ووافق جيمس على كره منه ، لأنـــه خشى أن فيليب قد يرد شارل إلى انجلترا خائبـــاً ، فيكون أضحوكة أوربا .

ووصل الأمير شارل ودوق بكنجهام إلى مدريد (مارس ١٦٢٣) ، فوجد أن الأميرة الفاتنة لا يمكن الوصول إليها أو الاقتراب منها ، وأن الشعب الأسبانى غاضب أشد الغضب لمجرد التفكير فى زواجها من أمير بروتستانتى ، قدر استياء الإنجليز لفكرة عودة أميرهم بعروس كاثوليكية إلى انجلترا . وقام فيليب ووزيره أوليفار بمراسم الحفاوة والتكريم للضيوف ، وكتب لوب دى فيجا رواية كمظهر من مظاهر الترحيب ، ورسم فيلاسكيه لوحة للأمير شارل ، وامتدح بكنجهام المفاتن الأسبانية إلى حد الامتياز والشرف . ولكن وضع لإتمام الزواج شرط أساسى لا مناص منه ، وهو منح الحرية الدينية للكاثوليك الإنجليز . ووافق شارل على الفور ، ووافق جيمس آخر الأمر ، ووقعت معاهدة الزواج ، ولكن عندما طلب جيمس فيما بعد من فيليب أن يعد باستخدام الأسلحة الأسبانية ، إذا اقتضى الأمر ، فى استعادة فردريك لإقليم البلاتينات ، أبى فيليب أن يلزم نفسه بشىء ، وأمر جيمس ابنه بالعودة إلى الوطن الحبيب . وإنا لنلمس الجانب الإنسانى فى الملك فى رسالته إلى شارل (١٤ يونيه ١٦٢٣) : « أنا الآن أعض بنان الندم ، وأتألم أشد الألم ، لأنى سمحت برحيلك . عنى أنا لا أعبأ بالزواج ولا بغيره ، طالما أراك بين أحضانى ثانية . أعادك الله إلى أعادك الله إلى أعادك الله إلى(٧٧) « أما الأميرة الأسبانية فانها ، عند توديعها الأمير شارل ، جعلته يقطع على نفسه الوعد بالاهتمام بأمر الكاثوليك فى انجلترا

ورعايتهم(٨٧) . وحيث انجلترا الأمير العائد بوصفه بطلا ، لأنه لم يأت بعروس ، بل أتى بدلا منها بمجموعة من لوحات تشيان (Titian — رسام من البنـــدقية ١٤٧٧ — ١٥٧٦) .

أما بكنجهام الذى غضب الآن أشد الغضب لأنه خدع نفسه فى أسبانيا وارتكب هذه الحماقة هناك (كما أكد له أوليفار ذلك) فقد ولى وجهه شطر فرنسا ليعقد معها حلف مصاهرة ، وهيأ لشارل الزواج من صغرى كريمات هنرى الرابع — وهى هنريا ماريا التى كان مذهبها الكاثوليكى شوكة من الأشواك فى جنب البرلمان القادم . واستعاد الوزير الشـــاب المتهور شعبيته فى مجلس العموم ، بالالحاح على جيمس — الذى تدهورت صحته وانحطت قواه العقلية — ليعلن الحرب على أسبانيا. وعاد البرلمان إلى الاجتماع فى فبراير ١٦٢٤ ، وانتهج سياسة قوامها ، من جهة ، المصالح التجارية المتلهفة على الاستيلاء على المكاسب أو المستعمرات أو الأسواق الأسبانية ، ومن جهة أخرى ، صرف أسبانيا عن مد يد المساعدة إلى الامبراطور الكاثوليكى ضد البروتستانت فى ألمانيا . إن الشعب الذى قال بأن جيمس جبان لأنه يحب السلام ، قال عنه الآن أنه طاغية لأنه يجند الرجال للخدمة العسكرية ، ولم تكن الكتائب التى أعدت ولا الأموال التى اعتمدت كافية . وأحس جيمس بالمرارة ، لاختتام حكم سلمى بحرب عقيمة .

وتكاثرت عليه العلل والأدواء فى أعوامه الأخيرة ، وكان قد سمم جسمه بالاسراف فى الطعام والشراب دون تمييز ، وكان يعانى الآن من التهاب بالجهاز التنفسى ، والتهاب المفاصـــل والنقرس والحصى فى الكلى واليرقان والاسهال والبواسير ، وكان لابد من فصده يوميا ، حتى جعلت أقل متاعبه الملكية من هذا الفصد أمرا غير ضرورى(٨٩) . ورفض تناول الدواء . وتناول الأسرار المقدسة الخاصة بالكنيسة الأنجليكانية ، وفاضت روحه فى ٢٧ مارس ١٦٢٥ ، وهو يتمتم بآخر راحة لنفسه فى عقيدته .

وعلى الرغم من غرور جيمس وخشونته كان ملكا أفضل من بعض ملوك

يزوه فى النشاط والشجاعة والمغامرة . وكان « حكمه المطلق » بالدرجة الأولى عبارة عن « نظرية لطف الجبن من حدتها » وغالبا ما استسلمت لبرلمان قوى . ولم تحل مزاعمه اللاهوتية دون إرادة التسامح عنده ، وهو تسامح أكرم كثيرا من تسامح من خلفوه . وهيأ حبه الجرىء للسلام لانجلترا الازدهار ، وكبح جماح الولع بالقتال فى برلمانه ، وهو ولع يشوبه الفساد والرشوة ، وما يقابله من حماسة فى شعبه . وكان متملقوه قد أطلقوا عليه «سليمان » البريطانى لحكمته الدنيوية . ولما عجز صلى Sully عن توريطه فى النزاع فى القارة (أوربا) أطلق عليه "أعقل البلهاء فى العالم المسيحى" ، ولكنه لم يكن فيلسوفا ولا أبله ، ولكنه كان عالما يمثل دور الحاكم ، ورجل سلام فى عصر جن جنونه بالأساطير والحرب. إن الكتاب المقدس الذى تمت ترجمته فى عهد الملك جيمس أفضل من تاج أى غاز أو فاتح .